٢٥

هيلين كيلر

قِصّةُ حَياتي

نقلها إلى العربية
أمين مرسي قنديل

مكتبة الأنجلو المصرية
بالقاهرة

UNCLASSIFIED

Transmittal Slip

April 7, 1962

ICS: BOOK TRANSLATION RPOGRAM

Post: USIS CAIRO

Title: STORY OF MY LIFE

Author: Helen Keller

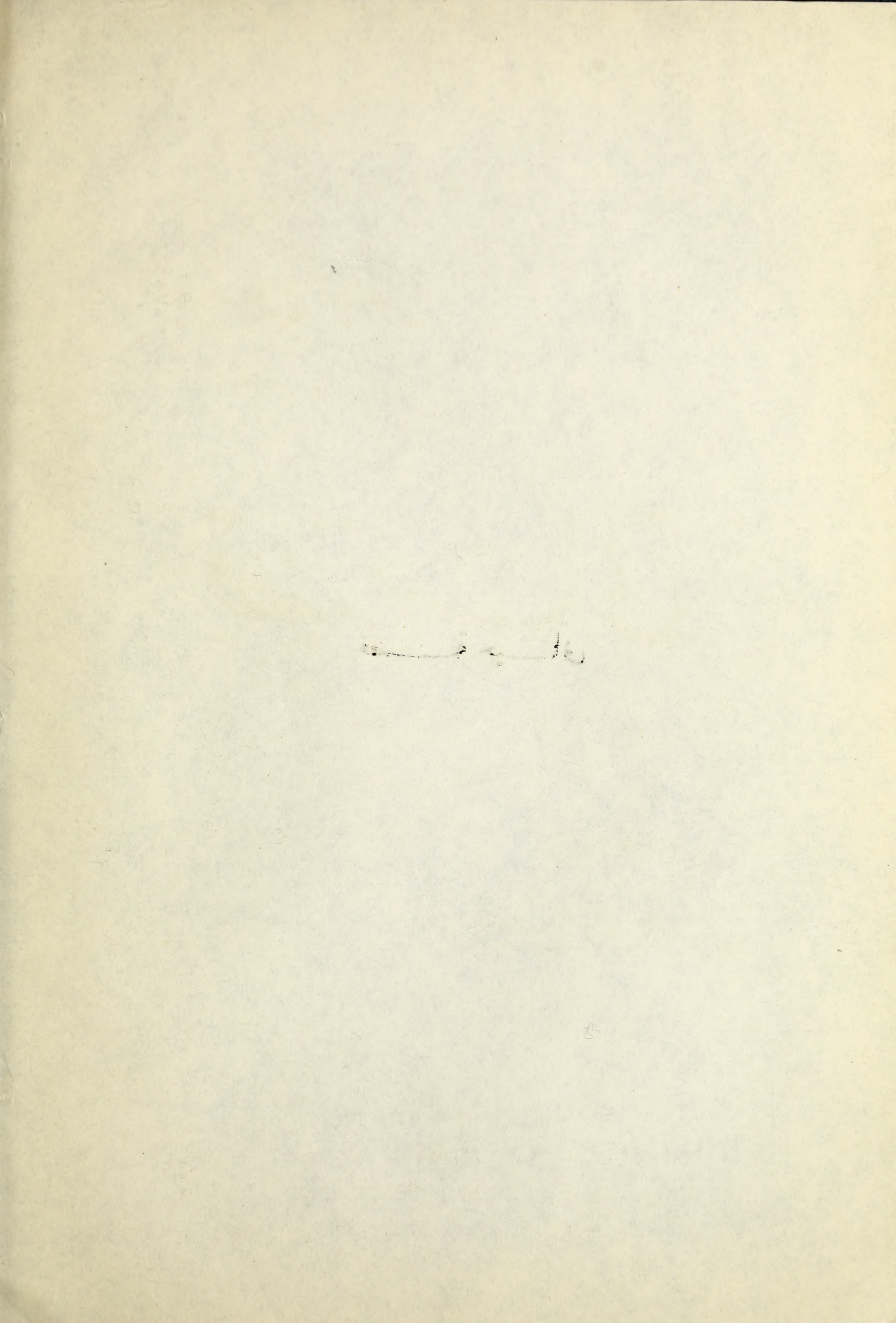
Date of publication: 1955

Local publisher: Anglo-Egyptian Booksgop, Cairo

Language: Arabic

Number of copies printed: 5,000

قصة حياتى



هيلين كيلر

قِصّة حياتِى

نقلها إلى العربية

أمين مُرسى قنديل

مكتبة الأنجلو المصرية

بالقاهرة

الطبعة الأولى

يونيه ١٩٥٢

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

صبحى وشركاه

١٦٥ شارع محمد بك فريد

بالقاهرة

THE STORY OF MY LIFE

BY HELEN KELLER

PUBLISHED BY GROSSET & DUNLAP. NEW YORK.



هيلين كيلر فى صباها

مقدمة المترجم

عرفت « هيلين كيلر » ، أول ما عرفتها ، مما ذُكر عنها فى الكتب ، وأنا طالب أدرس التربية ، وأتدرب على مهنة التدريس . فكانت كتب التربية وعلم النفس تشير اليها عند الكلام على الحس وتدريبه ، كما كانت تشير إلى فتاة أخرى اسمها « لورا بريدجمن » . ثم وقفتُ بعد ذلك على كثير مما كتب عنهما ، وعلى ما كتبته هيلين نفسها ، فكنت أعجب منها ، وأعجب كل الإعجاب بقدرة معلمتها التى نشأتها ودربتها . لقد وجدت فى الاثنتين مثلا أعلى للمدرّسة وتلميذتها .

ومدار هذا العجب ، وذاك الإعجاب أن فتاة حرمت السمع والبصر والكلام قبل أن تتم الثانية من عمرها ، واضطرت أن تعيش وحيدة ، فى عالم موحش ، كله صمت مطلق وظلام حالك ، استطاعت بما بذلته من جهود جبارة ، أن تغالب الأقدار وتصمد للمحن الدائمة المفروضة عليها ، فتتعلم الكلام والقراءة والكتابة ، وتعبر عن خواطرها ، وتتفاهم مع الناس وتتصل بهم بطرق غير الطرق التى يعبرون بها هم عن أنفسهم ويتفاهمون بعضهم مع بعض ؛ وتطلب العلم ، وتنافس أقرانها غير المحرومين ، وتشاركهم فى ألعابهم وضروب نشاطهم ، وتؤدى الامتحان مع المبصرات ، السامعات ، وتنال درجات علمية مثلهن وتمتاز عليهن فى اللغات ؛ ثم تصبح كاتبة مرموقة ومحاضرة

مسموعة ، ولغوية واسعة العلم باللغات ؛ وداعية نشيطة إلى العمل على توفير السعادة لمن حرمتهم الظروف نعم الاستمتاع بحاسة أو أكثر من الحواس ؛ فتعمل ، من يوم تخرجت ، فى جمعيات عده للترفيه عنهم والنهوض بهم ؛ وتحث الناس على التفاؤل والرضى والاستمتاع بما حولهم من شتى المتع الطبيعية ووسائل السعادة البريئة . هذه الكاتبة الموهوبة التى لا سمع لديها ولا بصر ـــ اشتهر فى العالم كله ولم تصلنا أنباؤها وخدماتها للمجتمع ـــ لأبنائه وبناته المحرومين بعض حواسهم ، ولا يعرف الكثيرون منا عنها وعن خدماتها وجهودها شيئا يذكر إلا بعد مضى قرابة خمسين سنة على ظهور أول كتاب من كتبها ! !

إن ما شعرت به هيلين من قصور عن غيرها ، ومن حرمان مفروض عليها ، دفعها بقوة ملحة إلى أن تكافح هذا الحرمان وتعمل على أن تكون فى مستوى غيرها من المبصرين السامعين . وقد تحقق لها ما أرادت ، فخرجت ، بفضل معلمتها ، من عالم الظلام والصمت إلى عالم الضوء والحركة والحياة ، وبلغت مستوى من العلم والثقافة والترقى الذهنى أرقى مما بلغه الكثيرات من السويات اللواتى يبصرن ويسمعن . فهى ، على حرمانها ، موهوبة ، حادة الذهن نشيطة ، فلم تقتصر فى تعلمها على كسب نوع أو أكثر من أنواع المهارة اليدوية كما يفعل أمثالها عادة ، بل اتجهت إلى النواحى الاكاديمية والاجتماعية وتفوقت فيها .

ذلك إلى أنها فى كفاحها ضد ماقدر لها، وفى شعورها بحرمانها لم يتطرق إلى نفسها الحقد على القدر ،ولا النقمة منه ،ولم يمتد حقدها إلى العالم فتعده ظلاما كله، وظلما كله؛ ولم تكن أحوالها النفسية مريرة قابضة، بل حلوة، منبسطة، مشرقة؛ ولم تكن متشائمة بحال من الأحوال بل متفائلة كل التفاؤل، تستمتع بما حولها من كل نعمة، وتعمل على إسعاد الناس، وتحضهم على التفاؤل، وتضع لهم كتابا تبين لهم فيه ماله من قيمة وماله من أثر. وأغلب الظن أن نشأتها وتربيتها الخاصة جعلتاها تنظر إلى الناس والعالم والمستقبل بشكل أزهى كثيراً مما هى عليه، وتراها أصفى وأطهر مما هى عليه فعلا. أليس ذلك خير يجعلها مصدر سعادة لنفسها وغيرها؟

وان نجاحها فى مغالبتها القدر وفى كفاحها ما هى فيه من ظروف قاسية جعلها تؤمن الايمان كله بصدق العزيمة والمثابرة والدؤوب على السعى وراء غرض سام يهدف المرء إلى تحقيقه. وأضحت توصى الناس بالجد والشجاعة والصبروالإيمان.

دعت وزارة الشئون الاجتماعية المصرية هيلين كيلر لزيارة مصر هذا العام، فلبت الدعوة فى ربيع سنة ١٩٥٢ لتقف على أحوال الكفيفى البصر وغيرهم؛ وهى الآن فى الثانية والسبعين من عمرها نشيطة مرحة، حادة الذهن، تتطلع إلى معرفة الأشياء والناس، وتقف على حقائقها، وتلقى محاضرات وتناقش من تريد، وتجيب كل سائل عما وجهه اليها من الأسئلة

وقد أتيح لى أن أسمع محاضرة لها تلقيها فى الجامعة الأمريكية فرأيت كيف تحاضر ، وكيف تتصل بالناس ، وكيف يتصل الناس بهـا ويتفاهمون معها عن طريق سكرتيرتها الآنسة «بولى طمسون» التى هى بمثابة السمع والبصر والترجمان لها، فزاد إعجابى بما أنجزت وما تسعى اليه من أغراض ، وعرفت لمَ قال الكاتب الأمريكى «مارك توين» «إن أروع شخصيتين فى القرن التاسع عشر هما نابوليون بونابرت وهيلين كيلر» ، ولمَ قالت جرائدنا المصرية وجرائد العالم إنها معجزة القرن العشرين. وتذكرت ماقرأته عن معلمتها آن منسفيلد صاليفان التى تولت تعليمها منذ كانت فى السابعة من عمرها ولازمتها تسعا وأربعين سنة متوالية لم تفارقها ، مضحية بكل شىء فى سبيل إسعاد صبية فى السابعة من عمرها حرمتها الأقدار السمع والبصر والكلام . وكانت آن نفسها كفيفة البصر فى صغرها والتحقت بمعهد بركنز للعميان سنة ١٨٨٠ وتخرجت منه بعد سنوات ستة قضتها فيه مع لورا بريدجمن

وما أن تخرجت من المعهد حتى عرض عليها أن تتولى تعليم هيلين الصغيرة فى قرية نائية فى ولاية ألاباما ، فقبلت راضية ، واختارت أن يكون قيامها بهذا التعليم زكاة منها عن بصرها هى الذى رد اليها، ولعلها تنقذ فتاة من حرمان أشق وأقسى من حرمانها هى . وبدأت تدرس لها فعلا منذ سنة ١٨٨٧ فبذلت جهودا طيبة وصبرا لاينفد قالت عنه هيلين نفسها إنه كان أكبر من صبر أيوب وأبدت فى التدريس مقدرة عجيبة وأصالة رأى شديدة إذ لم



هيلين كيلر وسكرتيرتها الآنسه بولى طمسون عند
زيارتهما لمصر سنة ١٩٥٢

يكن أمامها أى مثل تحتذيه ، ولم تكن هى قد أعدت لمثل هذا التدريس. فان كانت هيلين معجزة القرن العشرين فان معلمتها القديرة آن صاليفان هى التى خلقت هذه المعجزة بفنها وصبرها ومحبتها . فلا غرو أن شعرت هيلين بالأسى البالغ والحزن العميق على وفاتها سنة ١٩٣٦ فقد ظن الناس أن فى وفاة آن القضاء على هيلين . ولكن هيلين المتفائلة لم تستسلم للحزن ، ولم تترك نفسها لليأس ، بل تعزت بأن جهود معلمتها كانت سببا فى إسعادها وإسعاد آلاف لاتحصى من أمثال هيلين . ذلك إلى أن المعلمة كانت قد أشركت معها فى العمل منذ سنة ١٩١٤ آنسه اسكتلندية قديرة نشيطة تستمتع بميزات نادرة — هى الانسة بولى طومسون ، سكرتيرة هيلين المرافقة لها الآن . وليس من شك فى أن كل من يراها يدرك ماتتجلى به من صفات عالية ومقدرة نادرة

من هذا وغيره بخاطرى وأنا أستمع إلى محاضرتها ، وأستمتع بطرق إجابتها عما يوجه إليها من الأسئلة ، فرأيت فى التلميذة المحرومة المكافحة الوفية ، وفى معلمتها القديرة المحبة لفنها وللإنسانية ، مثلا أعلى من الخير أن يعرض على شبابنا ، بل على كهولنا وشيوخنا ؛ فاندفعت عقب المحاضرة أتحدث إلى هيلين كيلر وسكرتيرتها ، ورجوت من الثانية أن تستأذن لى فى أن تكون تحيتى لها فى شكل ترجمة عربية لكتابها « قصة حياتى » فأذنت لى مبدية سرورها . وهكذا

وجدتنى قد وعدت بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ،ولامناص لى من الوفاء بما وعدت .

ومما دعانى إلى اختيار هذا الكتاب ، دون مؤلفاتها الأخرى ، أنها تعده خير ما كتبتْ ، وأن إجاباتها عما وجه إليها من الأسئلة لم تكن تخرج عما ذكرْته فى هذا الكتاب ، وأنه قد ترجم إلى كثير من اللغات الأوروبية فكان موضع أحاديث ودراسات بين الباحثين فى شئون التربية وعلم النفس ، وبين غيرهم من القراء فى العالم كله .

و « قصة حياتى »(١) أول كتاب ألفته هيلين كيلر وليس آخرها ، وإنه لرسالة خاصة للمدرسين والطلاب يوحى إليهم بالشكر على نعمة الحواس ووجوب رعايتها وصيانتها وتدريبها ، والعطف على من حرموا شيئا منها ؛ كما يوحى اليهم بما تفعله المثابرة ، والجد

---

(١) وهو ليس كتابها الوحيد ، فهى كاتبة نشيطة أصدرت بعده كتبا عدة منها :

The World Weli ve in.
The Practice of Optimism.
Out of the Dark.
Let us Have Faith.
My Religion.

والكفاح الموصول ، والتفاؤل ، فى تحقيق كل غرض نبيل يسعون اليه . فهو يبين لهم مدى ما يمكن أن ينجز المدرس المخلص لفنه ولرسالته ، والتلميذ الدؤوب المثابر على عمله .

بدأت هيلين هذا الكتاب وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ونشرت جزءاً منه فى بعض المجلات ولكنه لم يظهر فى شكل كتاب الا فى سنة ١٩٠٣ وهى فى الثانية والعشرين .

وقد وقف على نشره المستر جورج البرت ماسى الذى تزوج من معلمتها آن صاليفان سنة ١٩٠٥ . وزيادة على ترجمة حياة هيلين بقلمها أضاف ماسى الى الكتاب مقتبسات كثيرة من خطاباتها ومكاتباتها مرتبة ترتيبا زمنيا ، كما أضاف اليه كثيرا من التقارير والخطابات التى كتبتها معلمتها عنها. ولهذه الخطابات والتقارير أهميتها للباحثين فى النواحى النفسية والتعليمية ، كما أنها تصحح بعض الوقائع والآراء التى ذكرتها هيلين فى ترجمة حياتها .

وسبب كتابتها هـذه الترجمة أن ظروفا نفسية قاسية أحاطت بها ، وشرحتها هى فى الفصل الرابع عشر من الكتاب . فاقترحت عليها معلمتها أن تكتب موجزا لسيرة حياتها تتسلى بكتابته وتستعيد اتزانها العقلى ، فقد كانت مضطربة كل الإضطراب

وها هى ذى القصة نجلوها لأول مرة فى حلتها العربية تحية

ولصاحبتها بمناسبة زيارتها لمصر ربيع هذا العام (١٩٥٢) قد روعى فيها أن تكون دقيقة ما أمكنت الدقة ، تكشف عن المؤلفة واتجاه تفكيرها وخصائص أسلوبها ، من غير أن تخل بمقتضيات الأساليب العربية . وسيرى القارىء أن جملها قصار عادة ، وأنها قد تغرق أحيانا فى الاستعارات والمجازات ثم تشعر هى نفسها بما قد يكون فى ذلك من تعقيد أحيانا فتعتذر عنه . ولا يدهش القارىء أن يرى أنها قد تقول رأيت وسمعت وأصغيت ، فإنها كانت ترى وتسمع وتصغى بعين خيالها النشيط وآذانه ، وكانت تتحرج أحيانا من أن تذكر حرمانها وقصورها ، فهى لا تريد إلا أن تعد نفسها واحدة مثل سائر الناس لا تختلف عنهم فى شىء . وتقول إن لدى حواس خمسا بدلا من ثلاث ، فلا أستطيع أن أحمل نفسى على أن أقول : ألمس وأحس بدلا من أرى وأسمع . ولا عجب ان ظن كثيرون أن لديها حاسة سادسة خفية عنا .

هذا ولم يكن لفصول الكتاب عنوانات فأبحتُ لنفسى أن أزودها بها ، ذلك الى أن المؤلفة قد أشارت فى كثير مما سردته عن حياتها إلى أمكنة وشخصيات وكتب ومؤلفين قد تغيب عن ذاكرة القارىء ، ولا سيما أن غالبيتها أشخاص ومؤلفات وأمكنة أمريكية ، فاضطررت ، على كره منى ، إلى شرح بعضها شرحا

موجزا كل الإيجاز أرجو ألا يكون فيه ما يقطع على القارىء استمتاعه بالكتاب .

وليس يسعنى هنا إلا أن أزجى الشكر لمكتبة الأنجلو المصرية ؛ فما أن عرضتُ عليها ما قطعته على نفسى من الوعد بالترجمة لحياة هيلين كيلر حتى سارعت وعاونتنى على الوفاء بما وعدت ، بأن اضطلعت بنشر الكتاب ، واختارت مطبعة « دار النيل » لإخراجه فى هذه الحلة الأنيقة فأحسنت الاختيار . فلأصحاب المكتبة والمطبعة أجزل الشكر وأكمله ؟

أ . م . ق

مصر الجديدة فى مايو سنة ١٩٥٢

إلى

ألِكْسندر جراهَمْ بِلْ

الذى علّم الصم الكلام ومكن للآذان المصغية أن
تسمع من المحيط الأطلسى إلى جبال « الروكيز »

أهدى

قصة حياتى

الفصل الأول

دنيا أظلمت

بنوع من الخوف أشرع فى تدوين قصة حياتى ؛ فان شيئا من التردد والتطير يستولى علىَّ عندما أزيح الستار الذى غشَّى طفولتى وشملها كلها ، كأنما لفها فى غلالة ذهبية اللون . ولا يخفى أن قيام المرء بالترجمة لحياته بنفسه أمر عسير شاق ؛ فكلما حاولت تصنيف خواطرى الأولى وترتيبها تشابهت علىّ الحقائق واختلطت بالأخيلة عبْر السنوات التى تربط الماضى بالحاضر . فالمرأة لا تتصور ما مر بها من خبرة فى طفولتها الا بالشكل الذى يحلو لها أن تتخيله . ولازال بعض ما علق بذاكرتى من آثار السنوات الأولى من حياتى يتجلى لى واضحا بارزا ، على حين خيمت ظلال المحبس الذى أعيش فيه على سائرها فطمسته . هذا ، و إن الكثير من مسرات الطفولة وأحزانها قد فقدت ما فيها من قوة ، وزال عنها مالها من تأثير ، كما أن كثيراً من الأحداث التى لها قيمة حيويه فى تربيتى ، قد انزوت فى غيابة النسيان وسط ما أحدثته استكشافاتى الرائعة من

سورة وخفة طرب فى نفسى . وسأحاول هنا أن أجتزئ برسم عدة صور تخطيطية أعرض فيها ما أعده أهم الأحداث فى حياتى وأكثرها استرعاء لاهتمام القارىء حتى لا أثقل عليه ولا أملّه

ولدتُ فى السابع والعشرين من شهر يونية سنة ١٨٨٠ فى تسكامبيا Tuscambia ، وهى بلدة تقع فى ولاية ألاباما[1] الشمالية .

وقد تحدرت أسرتى من جهة أبى من كسبار كيلر Caspar Keller وهو سويسرى الأصل ، هاجر إلى أمريكا واستقر فى ولاية مارى لاند[2] (Maryland) ، وكان أحد أجدادى السويسريين أول مدرس عُنى بتعليم الصم فى مدينة زوريخ ووضع كتابا فى شئون تربيتهم . أليس هذا من غريب الاتفاق ومحاسن المصادفات ؟ ولكن لا

---

(١) ألاباما (Alabama) ولاية من الولايات المتحدة الامريكية تقع فى الجنوب الشرقى بين ولايتى جيورجيا والمسسبى . وهى ولاية زراعية عاصمتها (منتجومرى) وبها جامعة للزنوج خاصة فى Tuscagee وجامعة اخرى للبيض فى Tuscaloosa .

(٢) ولاية من الولايات المتحدة ، تقع على المحيط الأطلسى ، وهى احدى الولايات الثلاث عشرة الأصلية .

يوجد ملك ما ليس بين جدوده عبد رقيق ، كما لا يوجد عبد وليس بين جدوده ملك .

حصل جدى لأبى — وهو ابن كسبار كيلر هذا ، على أراض واسعة فى ألاباما ، وانتهى به المطاف إلى الاستقرار بها . وقد حدثونى عنه بأنه كان يذهب كل سنة من تسكامبيا إلى مدينة فيلادلفيا [1] على ظهر جواده ليشترى مايلزم لمزرعته ؛ ولا تزال عمتى تحتفظ بالخطابات التى كان يبعث بها إلى الأسرة ، ويصف فيها رحلاته هذه وصفاً شيقاً حياً .

وكانت جدتى ابنة الكسندر مور (AlexanderMoore) أحد أنصار لافاييت ، وحفيدة الكسندر سبوتسود Spottswood أحد

---

(١) فيلادلفيا Philadelphia من أعمال ولاية بنسلفانيا ، وهى ثالث مدينة فى الولايات المتحدة . وتقع على بعد ١٢٨ كيلومترا فى الجنوب الغربى من نيويورك . أسسها وليام پن فى سنة ١٦٨٢ لطائفته الدينية المعروفة باسم كويكرز (Quakers) .

حكام فرجينيا[1] الأول وابن عم القائد روبرت لى[2] (Robert Lee)

أما والدى فآرثر كيلر . وكان ضابطا فى الجيش الاتحادى .

وكانت أمى ، كيت آدمز ، (Kate Adams) زوجته الثانية؛ وتصغره بعدة سنين، وكان جدها بنامين أدمز قد تزوج سوزانا جودهيو وعاشا معا فى بلدة نيوبرى من أعمال ولاية مساشوستس[3] حيث ولدلهما ابنهما

---

(١) فرجينيا (Virginà) إحدى المقاطعات الثلاث عشرة الأصلية التى تكونت منها الولايات المتحدة فى بداية الأمر . وتقع على المحيط الاطلسى وعاصمتها رتشمند .

(٢) روبرت لى (Ribert Edward Lee) ١٨٠٧ — ١٨٧٠ قائد أمريكى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولد فى ولاية فرجينيا وترقى حتى صار مستشارا حربيا للرئيس ديفيز Davis ويعده العارفون من خيرة الاستراتيجيين .

(٣) مساشوستس (Massa Chusetts) ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى إحدى مجموعة الولايات المعروفة باسم ولايات نيو إنجلند الواقعة على المحيط الأطلسى ، وكان أول من استقر فيها من المهاجرين الجماعة المعروفة باسم الاباء الحجاج (The Pilgrim Fathers) الذين نزلوا أول مانزلوا فى بلدة بليموث سنة ١٦٢٠ . وعاصمتها بوسطن .

تشارلس آدمز فى نيو برى پورت ، فى الولاية عينها ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى بلدة هلينا فى ولاية أركنساس [1] واشترك فى الحرب الأهلية [2] فى صفوف الجنوبيين ، وظل يترقى حتى وصل إلى رتبة أمير لواء ، ثم تزوج لوسى هلين إفيريت (Everett) وهى من الأسرة ذاتها التى ينتمى اليها أدوارد إفريت والدكتور أدوارد ، إفيريت هيل (Hale) ولما وضعت الحرب الأهلية أوزارها انتقلت الاسرة إلى مدينة ممفيس [3] فى ولاية تنسى [3] .

وكنت إلى اليوم الذى مرضتُ فيه مرضى الذى سلبنى بصرى وسمعى أسكن بيتا صغيرا لايحتوى إلا على حجرة فسيحة مربعة الشكل ،وأخرى صغيرة ينام فيها الخادم ، كما هى العادة فى الجنوب ،

---

(١) أركنساس — ولاية تقع فى وسط جنوب الولايات المتحدة مشهورة بفاكهتها ، وبزراعة القطن وربع سكانها من الملونين .

(٢) الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية . وكان الرق هو موضوع النزاع . فالشماليون يطلبون إلغاءه والجنوبيون ،وهم أصحاب مزارع واسعة، يطلبون استبقاءه للعمل فى مزارعهم .

(٣) تقع هذه الولاية فى اواسط الولايات المتحدة يحدها من الغرب نهر المسيسبى . وممفيس هذه أكبر بلد فيها .

حيث درج الناس على أن يبنوا بيتا صغيرا على مقربة من الدار الكبيرة ليكون ملحقا لها يستخدم عند الحاجة . ولذا بنى والدى بيتا من هذا الطراز عقب الحرب الأهلية ، وانتقل اليه مع والدتى عقب زواجهما . وكانت الكروم وأشجار الورد المتسلقة والياسمين البرى تغطيه كله ، حتى إذا ما نظرت اليه من الحديقة بدا لك خميلة لا بيتا . وحتى مدخله الصغير كانت تحجبه عن الانظار سجف من الورد الأصفر ، ومن نبات « الاسميلاكس » ، وفضلا عن ذلك فانه كان موئلا حبيبا تألفه النحل والعصافير الطنانة .

أما دار كيلر الكبيرة حيث تسكن الأسرة ، فكانت على بعد بضع خطوات من خميلة وردنا الصغيرة هـــذه ، وكانت تسمى آيفى جرين (Ivy Green) فقد كانت الدار والأشجار القائمة حولها والسياج المحيطة بها مغطاة كلها بالنباتات الجميلة . فلا عجب ان كانت حديقتنا القديمة الطراز جنة طفولتى .

وحتى قبل حضور معلمتى إلىّ اعتدت أن أذهب إلى الحديقة للبحث عن أزهار البنفسج والسوسن ، وكنت أتحسس طريقى إليها على السياج المكون من أشجار البقس القاسية المربعة الشكل ، مهتدية

بحاسة الشم ؛ وقد ذهبت إليها مرة وأنا فى سورة غضب أنشد الراحة والسكون وأخفى وجهى المتوهج فى الكلأ وأوراق الشجر الرطبة . وكان يسرنى كل السرور أن أهيم فى حديقة الأزهار هذه ، وأطوف فيها سعيدة أتنقل من مكان إلى مكان حتى أصادف كرمة جميلة فأعرفها من أوراقها وأزهارها و براعمها ، وأدرك أنها هى الكرمة ذاتها التى تغطى البيت الصيفى المتهدم القائم فى الطرف الآخر من الحديقة . وهنا أيضا ، كنت تجد أزهار «الداليا السوداء» والياسمين الغض ، وأزهاراً أخرى حلوة نادرة يسمونها السوسن الفراشى لأن أوراقها تشبه فى كثير أجنحة الفراش . أما الورد ، فحدث عنه ولا حرج ، فهو أجمل الزهور كافة ولم أجد قط فى تلك « الصوب » أو البيوت الزجاجية التى يلجأون إليها فى الشمال لتربية الأزهار ، ورداً ينعش الفؤاد مثل ذلك الورد المتسلق الذى عرفته فى بيتنا فى الجنوب ، والذى يمتد معلقاً على هيئة أقواس نصر طويلة من مدخل بيتنا ، فيملأ الهواء عطراً لا تشوبه أية رائحة أرضية ؛ و إذا ما طله الندى فى الفجر بدا رقيقاً صافياً . فلم يكن يسعنى إلا أن أتساءل عما إذا كان هذا يشبه (البروق) الذى فى حديقة الله .

كانت بداية حياتى بسيطة كل البساطة ، لا تخرج عن بداية حياة أى طفل آخر . فقد جئت ، ورأيت ، وانتصرت ، كما يفعل أى طفل بكر فى الأسرة عادة ؛ ثم جرت المناقشات المألوفة حول الاسم الذى يحسن أن يختار لى . فلا يغرب عن فكرك أن اختيار اسم لبكر أطفال الأسرة يجب أن يكون موضع اهتمام خاص ، وأنه لأمر يحرص على العناية به كل فرد من أفراد الأسرة . وكان من رأى والدى أن يكون اسمى ميلدرد كامبل Mildred Campbell وهو اسم جدة لى كان والدى يجله و يوقره كل التوقير . ولما اشتدت المناقشة حول اختيار الاسم رفض والدى أن يشترك فى الموضوع ، ففضت أمى المشكلة بابداء رغبتها فى أن يكون اسمى على اسم والدتها هلين إفريت ؛ ولكن والدى نسى الاسم فى حركة نقلى إلى الكنيسة ؛ وذلك النسيان أمر طبيعى لأنه كان اسماً رفض أبى أن يشترك فى اختياره . فلما سأله القس عن الاسم الذى اختير لى لم يستطع أن يذكر سوى أنهم قرروا أن يكون على اسم جدتى ، فخطر بباله اسم هلين آدمز .

قيل لى إنه كان يظهر علىّ ، وأنا لا زلت بعد فى لفائفى ، أمارات

تنذر بأنى سأكون ذات طبع حاد متسيطر . فقد كنت أصر على أن أحاكى كل شىء أحس أن الناس يفعلونه . وقبل أن أبلغ السنة الأولى من عمرى جعلت أقول How d'ye (كيف حالك) ، واسترعيت انتباه جميع الناس وأنا ألفظ كلمة : شاى ! شاى ! شاى ! واضحة كل الوضوح . ولازلت أذكر ، بعد مرضى ، كلمة ماء (Water) فكنت ألفظ صوتا يدل على هذه الكلمة ، ولم أكف ، حتى بعد أن فقدت كل قدرة على الكلام ، عن قول «واه واه» التى تدل على كلمة (ماء) إلا بعد أن تعلمت هجاء هذه الكلمة فيما بعد .

وقد أخبرنى أهلى بأنى أخذت أمشى قبل أن أتم السنة الاولى من عمرى. فبينما كانت أمى تخرجنى من الوعاء الذى استحم فيه انزلقتُ من بين يديها . فقد استرعت انتباهى ظلال أوراق الشجر وهى ترقص على أرض الحجرة فى ضوء الشمس ، وجعلت أجرى نحو هذه الظلال المتحركة إلى أن زال عنى الحافز الذى دفعنى إلى الجرى ، فارتميت على الأرض ، وجعلت أستغيث بوالدتى كى ترفعنى بساعديها من على الأرض .

لم تدم لى هذه الأيام السعيدة طويلا . فهى لم تزد على ربيع

قصير الأمد زاخر بالموسيقى الصادرة من تغريد الحساسين والعصافير الطنانة ، وعلى صيف حافل بالثمار والأزهار يتلوه خريف مزهو بالألوان الذهبية والقرمزية . تلك فصول ثلاثة مرت بى وتركت هباتها، وخيراتها بين يدى طفلة صغيرة مرحة كل المرح . ثم كان شهر فبراير القاسى الكئيب. ففيه امتحنتُ بذلك المرض الذى أغلق عينى وأصم آذانى وألقى بى فى غيابة اللاشعور الذى يعيش فيه الطفل الحديث الولادة . وقالوا إنه احتقان حاد فى المعدة والمخ ؛ وخشى الطبيب علىّ منه ، فكان من رأيه أنى لن أعيش ؛ ومع ذلك فلم يطلع على الفجر إلا وقد زايلتنى الحمى فجاءة بالشكل الخفى الذى وفدت على به ، وفرح كل أفراد الأسرة فرحا عظيما ، وإن لم يكن يخطر ببال أحد منهم ، ولا ببال الطبيب نفسه، أنى لن أرى ولن أسمع شيئاً بعد .

وأظن أنى مازلت أذكر ذلك المرض ذكرى مضطربة حائرة ؛ وأذكر بوجه خاص الحنو الذى كانت تغدقة علىّ أمى لتواسينى به فى ساعات يقظتى ، وهى ساعات كلها آلام وكلهـــا برم وضيق . فالأوجاع التى لازمتنى ، والدهشة التى عرتنى ، عند ما استيقظت بعد نوم مضطرب قلق ، بعينين جافتين سخينتين حرمتا النور الذى كنت

أحبه ، والذى لم يعد يصل إلىّ الا خابياً ثم ظل يخبو من يوم إلى يوم . فماعدا هذه الذكريات العابرة — ان كان من الجائز أن نسميها ذكريات — فكل شيء بدا لى غير حقيقى ، كأنه كابوس غلب على فى نومى . وشيئاً فشيئاً اعتدت الصمت والظلام اللذين شملانى ، ونسيت انى كنت غير ذلك يوماً من الأيام . وظل هـذا حالى الى أن جاءتنى — معلمتى — التى ستحرر نفسى من إسارها ، وتطلقها من محبسها المظلم ؛ ولـكننى كنت فى التسعة عشر شهراً الأولى من حيـاتى ، قد حصلت على لمحات من حقول خضراء مترامية الأطراف ، ومن جو مضىء مشرق الجـوانب ، وأشجار وأزهار لم يستطع الظـلام الذى انتابنى أن يمحو أثرها من نفسى . فما دمنا قد أبصرنا « فاليوم يومنا ؛ وكل ما يتيحه لنا ذلك اليوم فهو ملكٌ لنـا كذلك » .

الفصل الثانى

بيئتى وأهلى

لست أذكر كل ما مر بى من الأحداث فى الشهور الأولى التى أعقبت مرضى ؛ وكل ما أتذكره أنى كنت أجلس فى حجر أمى ، أو أتعلق بإزارها وهى تتنقل فى أرجاء البيت تؤدى ما عليها من أعمال منزلية . وكنت لاأدع شيئا إلا لمسته بيدى ؛ ولاحركة إلا أحسست بها وفطنت اليها ، فتوصلت بذلك إلى معرفة الكثير من الأشياء . ولم ألبث أن شعرتُ بالحاجة إلى وسيلة للاتصال بالناس ، والتفاهم معهم ،فأخذت أشير بإشارات غامضة قاصرة ، فهزة من رأس معناها (لا) وهزة أخرى معناها (نعم) ، وجذبة معناها (تعالى) ودفعة معناها (اذهبى) ؛ وإن كان ما أطلبه خبزا حاكيت عملية قطعه بالسكين ، وحركة وضع الزبد عليه ؛ وإن أردت أن أطلب من أمى أن تصنع لنا (آيس كريم) مع الغداء قلدت حركة الآلة التى تستعمل فى صنعها ، وارتجفت عدة مرات إشارة إلى

البرودة . وزيادة على هذا كله استطاعت أمى أن تيسر لى فهم أشياء كثيرة ؛ فكنت أعرف دائما عندما تريدمنى أن أصعد السلالم لأستحضر لها أى شيء تعينه لى ، فأنطلق مسرعة ، أصعد السلالم ، أو أذهب إلى أى مكان آخر تحدده لى وتكلفنى أن أمضى اليه . والحق إنى مدينة لحكمتها التى كلها حب وحنو بكل ماهو مشرق مضىء ، فى ليلى الداجى الطويل ، وبكل ماهو خير فيه .

وكنت أدرك الكثير مما يجرى حولى . فتعلمت فى الخامسة من عمرى أن أطوى « الغسيل » عندما يرد من المغسلة ، وأميّز ملابسى الخاصة من غيرها من الملابس ، وعرفت الزى الذى ترتديه أمى أو عمتى عندما تخرجان من المنزل ، وكنت أطلب منهما دائما أن يصطحبانى معهما .

هذا ، وكان أهلى يدعوننى كلما زارنا الضيوف لأشترك فى الترحيب بهم ؛ وإذا ما استأذنوا للانصراف حركت لهم يدى ، وأظن أن ذلك كان مقرونا بذكرى غامضة عن مدلول هذه الحركة . وحدث ذات يوم أن جاء بعض الضيوف لزيارة والدتى لأنى شعرت باغلاق باب الدار ، وبالحركة التى تنبىء بوصول الزائرين ، فسارعت وصعدت

إلى الدور الأول قبل أن يحاول أحد الوقوف فى سبيلى ، وذلك لأرتدى الملابس وأتزيا بالشكل الذى أتخيله ملائما لاستقبال الزوار ، فوقفت أمام المرآة ، كما يفعل الناس ، وألقيت على شعرى زيتا وطليت وجهى ، بطبقة سميكة من الدَّرور ، ثم ألقيت على رأسى خماراً طويلا غشى وجهى وتدلى على كتفى ، وتمنطقت بمنطقة كبيرة حول وسطى أرخيت أطرافها حتى كادت تصل إلى طرف إزارى . . ولما أتممت هذا الزى سارعت إلى الجماعة لاشترك فى تحية الضيوف وتسليتهم .

لا أذكر متى أدركت أنى مختلفة عن سائر الناس ؛ ولكنى أذكر أن ذلك كان قبل أن تحضر معلمتى . فقد لحظت أن أمى وأصدقائى لا يستعملون أى إشارات عندما يريدون شيئا ما ، كما أفعل أنا ، بل يتكلمون بأفواههم بعضهم مع بعض ، ولذا كنت أقف أحيانا بين المتحادثين وألمس شفاههم . واذ لم أكن أفهم شيئا مما يقولان كان يتولانى الغضب ، ويتملكنى الغيظ فأحرك شفتى وأعمل إشارات شتى وأقوم بحركات جنونية من غير جدوى ، مما كان يزيد فى غضبى أحيانا ، فاندفع وأركل ما حولى بقدمى وأظل أصيح وأعول حتى تخور قواى

وأظن أنى كنت أعرف عندما أكون « شقية » عابثة ، فقد كانت مربيتى (إلاّ) Ella تتأذى وتتألم إذاماندستهابقدمى. وبعدأن تهدأ سورتى و يزول عنى الغضب أجد فى نفسى شعوراً بشىء يشبه الندم ، و إن كنت لا أذكر حادثا واحداً كان فيه هذا الشعور يكفى عن معاودة شقاوتى وعبثى إن لم أحصل على ما أريد وأشتهى

وكان لى فى تلك الأيام رفيقتان تلا زماننى — مارتا واشنجطن و بل — أما (مارتا) فصبية صغيرة سوداء اللون وابنة طاهيتنا ، وأما (بل) فكلبة صيد عجوز يقال إنها كانت ماهرة فى الصيد أيام شبابها . وكانت مارتا تدرك مقصدى من إشاراتى التى أوجهها اليها ، فلم أجد صعو بة فى جعلها تدرك ماأريد بوضوح لالبس فيه ؛ وكان يلذ لى أن أسيطر عليها وأستبد بها، على حين كانت هى تفضل عادة أن تخضع لحكمى وتستسلم لارادتى ، على أن تخاطر بنفسها فى مشاجرة يدوية بينى و بينها ، فقد كنت قوية نشيطة متهورة لا أبالى بما تجره عواقب أعمالى ، وكنت أعرف ما أريد تمام المعرفة وأحصل عليه دائما ولو أدى بى ذلك إلى أن أكافح فى سبيله بالمخلب والناب . وما أكثر الأوقات التى قضيناها معا فى المطبخ نصنع كريات من

العجين ، ونساعد فى صنع «الآيس كريم» ونطحن البن ونتشاجر معا من أجل طبق الكعك ، ونطعم الدجاج والديكة الرومية التى كانت تتدافع وتتزاحم على درج المطبخ ،والتى كانت أليفة مستأنسة تأكل من يدى وتسمح لى بأن أمسها . وحدث مرة أن ديكا ضخما من تلك الديكة الرومية خطف منى ثمرة من ثمرات الطماطم وهرب بها ، ولعل نجاحه فى خطفها أوحى إلىّ و إلى مارتا بأن نستولى نحن أيضا على كعكة فرغت الطاهية من تحليتها وتزويقها ونهرب بها إلى حيث كتل الخشب ونلتهمها من غير أن نترك منها شيئا ، وكان أن مرضت على أثر ذلك وأشفق علىّ أهلى من مرضى . فهل نال الديكُ ياترى جزاءه هو الآخر مثلما نلت جزائى ؟

* * *

تحب بعض أنواع الطير أن تضع بيضها فى أماكن غير مطروقة ، فكان يلذ لى أن أبحث عن بيضها ذاك وأتصيده من مخابئه بين الحشائش الطويلة . ولم أكن أدرى كيف أخبر مارتا واشنجطن متى أريد أن أذهب لأتصيد البيض . فكنت أثنى يدى وأضعهما على الأرض لأفهمها أنى أقصد شيئاً مكورا مختفيا فى الحشيش ، وكانت

تدرك مقصدى بذلك . فاذا ما أسعدنا الحظ وصادفنا عشا ، لم أسمح لمارتا أن تحمل البيض إلى الدار بل كنت أفهمها باشارات واضحة لا شك فيها بأنى أخشى عليها من أن تقع فى الطريق فينكسر البيض .

وكانت الصوامع التى نختزن فيها القمح ، والاصطبلات التى تحفظ فيها الخيل ، والحظائر التى يحلب فيها البقر كل صباح وكل مساء — كانت مواضع تستثير اهتمامى واهتمام مارتا معا . وكانت النسوة اللاتى يأتين لحلب البقر يسمحن لى بأن أضع يدى على درة البقرة وهى تحلب . وما أكثر ما دفعنى البقر وألقى بي بعيداً عنه جزاء لى على فضولى !

وأنى لأذكر الاستعدادات التى قامت فى البيت على قدم وساق للاحتفال بعيد الميلاد ، فقد كانت مصدر سرور ومتعة دائمة لى . و بالطبع لم أكن أدرى الغرض منها ، ولكنى كنت أستمتع بالروائح الطيبة التى يملأ شذاها جو الدار ، كما كنت أفرح بقطع الحلوى وغيرها من الطيبات التى كانوا يقدمونها لى ولمارتا واشنجطن كى نلتزم السكون والهدوء . فقد كنا مع الأسف نعطل القائمين بهذه الاستعدادات عن

عملهم وإن لم يكن ذلك بمانع لنا من الاستمرار فى استمتاعنا وسرورنا بحال من الأحوال ، لأنهم كانوا يسمحون لنا بطحن التوابل والأبزار وبتنقية الزبيب ، ولحس الملاعق التى يحركون بها ما يطهونه من الحلوى . وقد علقت جواربى كما رأيت غيرى يعلقون جواربهم ، ومع ذلك لا أذكر أن هذا الاحتفال كان يستثير اهتمامى بصفة خاصة ، فلم يدفعنى الفضول أن أستيقظ عند الفجر لأرى ما أعده لى أهلى من تحف وطرائف .

وكانت مارتا واشنجطن شقية عابثة مثلى . فذات مساء حار فى شهر يوليه ، جلست طفلتان على درج (الفراندة) إحداهما سوداء اللون كالآبنوس تقوم على رأسها عناقيد صغار من الشعر الجعد عُقدت بأربطة الأحذية ، فبرزت من رأسها ملتوية أشبه ما تكون « بفتاحات الزجاجات » . أما الثانية فكانت بيضاء البشرة يتدلى من رأسها شعر ذهبى اللون تتماوج خصلاته الطوال ؛ وكانت كفيفة البصر ؛ وهى أنا . أما الزنجية فمارتا واشنجطن . وكنا نحن الاثنتين مشغولتين بصنع دُمى من الورق نقصها بالمقراض ، وذات مرة برمنا بهذا النوع من اللعب وسئمناه ، فجعلنا نقص أربطة أحذيتنا ونقطف أوراق شجيرات الياسمين البرى التى فى متناول أيدينا . ثم انتبهت إلى

ضفائر مارتا التى تشبه فتاحات الزجاجات لأعبث بها ، فعارضتنى فى البداية ولكنها عادت ورضيت أن تستسلم لمشيئتى . و إذ كانت ترى أن العدالة تقتضى أن يكون الأمر بينى و بينها واحدة بواحدة ، تناولت المقص بدورها واعتدت على خصلة من شعرى وجزتها ، ولولا حضور والدتى فى الوقت الملائم لأتت عليها كلها واحدة بعد الأخرى .

أما رفيقتى الثانية (بل) فكانت كلبة عجوزاً كسلانة ، كل همها أن تنام على مقربة من الموقد بدلا من أن تخرج معى لتلعب وتمرح . وكانت غبية بليدة الذهن ، ضعيفة الانتباه ، فكثيراً ما أجهدت نفسى لأعلمها لغتى وأعرفها معنى إشاراتى ورموزى ، ولكن جهودى كلها ضاعت عبثا لاطائل تحته . وكانت تنشط أحيانا فتهب من رقادها متهيجة ثم لا تلبث حتى تعود إلى جانب الموقد وتهجع ، ثم تجمد جموداً مطلقا كما تفعل الكلاب عندما تتربص متحفزة لصيد طائر وقع لها . و بالطبع لم أكن أدرى فى بداية الأمر لمَ كانت تفعل ذلك ، و إن كنت أدرى أنها لا تفعل ما أريده منها وآمرها به ، مما كان يغيظنى منها فينتهى الأمر بيننا بدور مصارعة من جانب واحد . وعندئذ تنفض عنها جمودها وتتمطى وتهتز مرة أو اثنتين فيهما شىء

من الاحتقار لى والاستهانة بشأنى ، ثم تعود إلى الجانب الآخر من الموقد لتنام . أما أنا فبعد أن يأخذنى الملل منها وأستيقن من فشلى معها كنت أتركها وأمضى إلى مارتا أبحث عنها .

كثير من الأحداث التى وقعت لى فى السنوات الأولى من عمرى رسخت فى ذا كرتى ،و إن ظلت فيها منعزلة بعضها عن بعض لا ارتباط بينها ، ولكنها كانت على الرغم من ذلك واضحة متميزة تُضفى على حياتى معنى قويا ودلالة حادة مركزة ؛ وما حياتى إلا تلك الحياة الصامتة المظلمة التى لا غرض لها ولا نهار يطلع فيها.

حدث مرة أنى سكبت الماء على ميدعتى (مريلتى) ، فقمت ونشرتها أمام النار كى تجف : وكانت النار قد صارت جذوات توهجت ثم أوشكت أن تخبو فى الموقد الذى فى حجرة الجلوس ، ولكن الميدعة لم تجف بالسرعة التي أريدها ، فاقتربت من الموقد وألقيت بها على الجذى المتوهجة فاشتعلت النار وأحاط بى لهبها ، ولم تلبث حتى علقت بملابسى فصرخت صرخة مدوّية مزعجة فهُرعت إلى مرضتى العجوز « فليبى » لتنقذنى من الخطر الذى دهمنى ،وألقت

عليّ ملحفة كادت تكتم أنفاسى ، ولكنها أطفأت النار فلم أصب بضرر يذكر اللهم إلا فى يدى وشعرى .

وحول ذلك الوقت أدركت ما للمفتاح من فائدة . فذات صباح دخلتْ أمى مخزن الطعام لبعض شأنها فانتهزت فرصة وجودها فى المخزن وأغلقت عليها بابه ، وحجزتها فيه ثلاث ساعات متوالية من غير أن تستطيع الخروج لأن جميع الخدم كانوا فى مكان بعيد عن الدار . فظلت تقرع الباب قرعا عنيفا ، وأنا قابعة على سلم المدخل أضحك فرحة مسرورة كلما أحسست بالدق على الباب . فعلى إثر هذه الحيلة الخبيثة ، اقتنع والدى بضرورة المبادرة إلى تعليمى . فلما حضرت معلمتى انتهزت أول فرصة لأحبسها هى الأخرى فى غرفتها ؛ فصعدت السلم أحمل شيئا كلفتنى أمى أن أسلمه إلى الآنسة صاليفان معلمتى فسلمتها إياه ، وبعد خروجى أغلقت عليها باب الحجرة وأقفلته ، ثم أخفيت المفتاح تحت صوان الملابس فى البهو . وعبثا حاولوا أن يحملونى على أن أبوح لهم عن المكان الذى أخفيت فيه المفتاح حتى اضطر والدى إلى استحضار سلم وأنقذ الآنسة من الحجرة التى حبستها فيها ، بأن أخرجها عن طريق النافذة ، مما زاد فى سرورى

وطربى . وبعد مضى عدة شهور على هذا الحادث أظهرت لهم المفتاح .

وفى الخامسة من عمرى انتقلنا من ذلك البيت الصغير المغطى بالكروم الى آخر أكبر منه وأوسع رقعة، وكانت أسرتنا آنئذ تتكون من أبى وأمى وأخوين غير شقيقين ، أكبر منى سنا ، ثم رزقنا الله بأختى الصغيرة ميلدرد (Mildred) ، وكان أول شىء علق بذهنى، وما زلت أذكره بكل وضوح ، أنى كنت إذا ذهبت إلى والدى شققت طريقى اليه وسط أكداس من الجرائد . فماذا يعمل والدى ياترى؟إنه لأمر حيرنى كل الحيرة ،فجعلت أحاكيه فيما يفعل،فوضعت منظاريه على عينى ظناً منى أن ذلك يكشف لى عن سر الأمر،ولكن السر لم ينكشف الا بعد عدة سنين عند ما عرفت معنى الجرائد ، وأدركت أن والدى كان يحرر واحدة منها

وكان أبى يحبنى حبا جما و يعطف على كل العطف ، وكان كل همه مقصوراً على بيته وأهله ، فلم يكن يفارقنا إلا فى موسم الصيد ، وقيل لى إنه كان صيادا من كبـــار الصيادين معروفا بينهم بمهارته فى التصويب وحسن الرماية ، وإن أحب الأشياء إليه بعد أسرته ،

بندقيته وكلابه . وقد اشتهر بقرى الضيف ، يكاد كرمه أن يبلغ حد الإسراف ، فقلما عاد إلى منزله من غير أن يصطحب معه ضيفا جديدا . وكانت حديقته الكبيرة أعز شيء يفخر به ، وعلمت أنه كان ينتج فيها خير أنواع البطيخ والشليك فى الولاية كلها ، ومن عادته أن يأتينى بما كورة العنب ، وبخير الثمار من شتى أنواع التوت . ومازلت أذكر لمسات يده التى كان يلاطفنى بها و يعابثنى وهو يذهب بى من شجرة إلى شجرة ، ومن كرمة إلى كرمة ؛ كما أذكر سروره العظيم بكل ما يبعث فى نفسى الفرح والسرور . وكان مشهورا بمهارته الفائقة فى قص الحكايات ، فكان يتهجى لى قصصه الرائعة على يدى بعد أن تعلمت اللغة ، ولم يكن يسره شىء مثل أن أعيد عليه هذه القصص فى الوقت الملائم .

و بينا أنا فى الشمال أستمتع بأواخر أيام الصيف الجميلة فى سنة ١٨٩٦ علمت بوفاة والدى بعد مرض قصير عانى منه آلاما شدادا انطفأ بعدها سراج حياته ، فكانت وفاته أول صدمة كبيرة انتابتنى وأول خبرة لى بالموت

أما والدتى فماذا أكتب عنها ؟ إنها لقريبة منى كل القرب حتى لأحسب من عدم اللياقة أن أذكر شيئاً عنها .

ظللت مدة طويلة أعد أختى الصغيرة دخيلة على ، فقد أدركت أنى لم أعد تلك الابنة الوحيدة الحبيبة إلى أمى . فاذا ما خطرت هذه الفكرة ببالى امتلأتُ غيرة وغضبا ،فقد أصبحتْ أختى تجلس باستمرار فى حجر أمى حيث اعتدت أنا أن أجلس ، و بدت لى كأنها تحتكروقت أمى كله لنفسها ،وتختص بجميع عنايتها. وحدث منها مرة ما تخيلت أنه يضيف إلى مالحقنى منها من أذى ومضرة إهانة لى و تحقيرا لشأنى .

كان لى فى ذلك الوقت دمية اسمها نانسى Nancy أعزها ، وأعبث بها كل العبث ، حتى كان غضبى ينصبُّ عليها بقدر ما يتجه اليها حبى ، مما جعلها فى حالة سيئة من البلى والابتذال . ومع أن عندى دُمى غيرها تتكلم وتصيح وتفتح عينيها وتغمضهما فإنى لم أكن أحب واحدة منها بقدر ما أحب نانسى المسكينة، التى كثيرا ما كنت أقضى ساعة أو تزيد عند مهدها أهزه بيدى ؛ وكان حرصى على الدمية ومهدها عظيما . فما إن عثرت مرة بأختى الصغيرة نائمة فى

مهد دُميتي حتى تولاني الغضب من جراء هذه القحة الصادرة عن شخص لا تربطني به أية رابطة من المحبة والود، فهجمت على المهد وقلبته بمن فيه ، وكاد ينتهى الأمر بالقضاء على الطفلة النائمة لولا أن تداركتها أمى وتلقفتها قبل أن تقع على الأرض .

وهكذا فبينا نهيم فى وادى العزلة المزدوج من صمت وظلام ، فانا لا نعلم شيئاً عن المحبة الرقيقة التى تتولد من كلمات الحب والمودة، ولا عن الأفعال ، وحسن المعاشرة . ولكن بعد أن عدت إلى ميراثى الانسانى أصبحتُ وأختى ميلدرد حبيبتين تتعلق كل منا بالأخرى ، نسير معا يداً فى يد ، إلى حيث تدفع بنا الأهواء ، على الرغم من أن ميلدرد لم تستطع بعد أن تفهم لغة الأصابع التى عليها معوّلى واعتمادى ، ولم أستطع أنا أن أفهم هُراءها وثرثرتها .

الفصل الثالث

أيام عصيبة

وفى أثناء ذلك اشتدت حاجتى إلى وسيلة أعبر بها عما فى نفسى. فالإشارات القليلة التى أستخدمها لم تعد كافية لى، مما جعلنى أثور وأغضب كلما أخفقت فى إفهام الناس مرادى، وصرت أشعر كأن أيديا خفية تمتد إلىّ وتأخذ بمخنقى، فلا مناص لى من أن أبذل جهوداً جنونية لأخلص نفسى من قبضتها. فجاهدت. لا لأن المجاهدة كانت تحقق لى ما أنشده، ولكن لأن روح المقاومة شديدة عنيفة فى نفسى، وكنت أبكى بدموع غزار، حتى أرتمى منهوكة القوى. فإن حدث أن كانت أمى على مقربة منى زحفت إليها وألقيت نفسى بين ذراعيها، ذايلة بائسة لا أستطيع أن أتذكر حتى السبب الذى أثار هذه العاصفة. ومع ذلك فقد ازدادت حاجتى إلى وسيلة ما، أتصل بها بالناس وأعبّر عن نفسى، وأصبحت شديدة ملحة، فتعددت سورات غضبى وصارت تحدث كل يوم، بل كل ساعة.

فأحزن ذلك والدىّ وأوقعهما فى حيرة وارتباك . فقد كنا نقطن على مسافة بعيدة عن أية مدرسة من مدارس العميان ، وعن مدارس الصم والبكم ، ولم يكن من المحتمل أن ترضى واحدة من المدرسات أن تأتى إلى بلد منعزل ناء متطرف ، مثل تسكامبيا ، لتتولى تعليم ابنة صغيرة صماء عمياء . وكان أصدقائى وأقاربى كلهم يشكون كل الشك فى إمكان تعليمى شيئاما. على أن الشعاع الوحيد الذى بعث الأمل والرجاء فى نفس أمى ، وأضاء لها ظلمة يأسها ، جاءها من كتاب لديكنز[1] عنوانه مذكرات أمريكية American Notes قرأت فيـه ما ذكره عن لورا بريدجمن [2] ، وطافت بذهنها

---

(١) تشارلس ديكنز Charles Dickins

زار تشارلس ديكنز الكاتب الانجليزى الشهير أمريكا سنة ١٨٤٢ ورأى معهد بركنز وعمل الدكتور هاو فيه ، فأثنى على جهوده فى تعليم لورا ، وأشاد باسمه فى كتاب ألفه عن زيارته لأمريكا ، وعنونه باسم مذكرات أمريكية.

(٢) لورا بريدجمن Laura Bridgman ١٨٢٩ — ١٨٨٩

فتاة أمريكية كانت هى الأخرى عمياء صماء بكماء على أثر حمى قرمزية أصابتها فى أواخر السنة الثانية من عمرها . وتولى تعليمها الدكتور =

ذكريات غامضة أن هـذه الفتاة كانت صماء عمياء ومع ذلك أمكن تعليمها . وتذكرت كذلك فى ألم ويأس أن الدكتور هاو[1] الذى استكشف طرق تعليم الصم البكم قد توفى إلى رحمة ربه من عدة سنوات مضت ، وخشيت أن تكون طريقته قد زالت بموته ؛ فكيف يتسنى لابنة صغيرة ، فى بلدة نائية فى ولاية ألاباما ، أن تستفيد من نعمة هذه الطريقة ؟

ولما قاربت السادسة من عمرى بلغ والدى أن فى مدينة بلتيمور طبيبا عظيما من أطباء العيون ، وفق فى كثير من الحالات التى استعصت على كثيرين وكانت تبدو ميئوسا منها . فعقد والداى العزم على أن يبعثا بى إلى بلتيمور هذه ليريا إن كان من الميسور أن يعمل هذا الطبيب شيئا لإعادة بصرى .

فرحلنا إليه ، وكانت الرحلة سارة أذكرها كل الذكر . فقد

هاو مدير معهد Perkins للعميان فى مدينة بوسطن . وقد توفيت لما كانت هلن فى التاسعة من عمرها .

(٣) الدكتور هاو S.G. Howe

مدير معهد بركنز للعميان فى مدينة بوسطن . انظر الحاشيتين السابقتين

كان معنا فى القطار ركاب كثيرون ؛ وأعطتنى سيدة صندوقا مملوءا أصدافا ، فجعل والدى يثقبها حتى يتيسر لى أن أنظمها فى سلك ، وكنت بها سعيدة راضية مدة طويلة ؛ هذا وقد كان (محصِّل) القطار شفيقا بى عطوفا على ، فكنت أتعلق بذيل معطفه وهو يجول فى العربات يجمع التذاكر ويقرضها . وقد أعطانى المقراض لألعب به فترة ، فكانت لعبة طيبة بعثت فى نفسى السرور والارتياح . وكنت أنزوى أحيانا فى ركن من أركان المقاعد ، أسلى نفسى ساعات طوالا بعمل ثقوب صغيرة فى قطع من الورق المقوى .

وصنعت لى عمتى دمية كبيرة من (الفوط) ، فجاءت شيئاً عجباً مضحكا حقا ! فهى لا شكل لها ، ولا أنف ، ولا فم ، ولا أذنين ولا عينين ، بل لم يكن فى هذه الدمية الملفقة شىء يستطيع به خيال الطفل نفسه أن يتصور لها وجها ، ومن أعجب ما أدهشنى من هذه الدمية فقدان عينيها . فقد أدهشنى أكثر من كل ما تجمع فيها من عيوب ونقائص ،حتى صرت أذكر ذلك لكل إنسان حولى بشىء من الإلحاف كان يضايقهم فى بعض الأحيان ، ولكن أحداً منهم لم يستطع مع ذلك أن يرتفع إلى حل مشكلة تزويد هذه

الدمية بعينين !فخطرت ببالى فكرة نيرة انحلت بها عقدة المشكلة . فنزلت من على مقعدى بسرعة وجعلت أبحث تحته حتى عثرت (بطرحة) عمتى ، وكانت مزينة بخرز كبير ، فانتزعت منها خرزتين وأشرت إلى عمتى بأنى أريد منها أن تخيطهما على دميتى ؛ فرفعت يدى إلى عينيها تسألنى إن كنت أقصد أن أجعل لها عينين ، فحركت لها رأسى بقوة علامة الايجاب . وسرعان ما خيطت الخرزتان فى موضعيهما ، ولم أكد أتمالك نفسى من الفرح . ومع هذا لم يلبث اهتمامى بهذه الدمية أن زال سريعا . وهكذا ، لم يحدث أنى غضبت مرة واحدة طوال هذه الرحلة الحافلة بأشياء كثيرة شغلت عقلى وأصابعى .

فلما بلغنا بلتيمور استقبلنا الدكتور تشزولم (Chisholm) خير استقبال ، ولكنه لم يستطع أن يفيدنا بشىء عن إعادة بصرى ، على أنه ذكر لأبى أنه من الممكن أن أتعلم ، ونصح له بأن يرجع فى ذلك إلى الدكتور ألكسندر جراهام بل [1] فى واشنجطن . فهو الذى يستطيع

(١) Alexander Graham Bell ١٨٤٧ — ١٩٢٢
ولد فى أدنبرة عاصمة اسكتلنده ثم هاجر إلى أمريكا سنة ١٨٧٠ مع أبيه . وهو عالم من علماء الطبيعة ، ومخترع لكثير من المخترعات النافعة أهمها التلفون فقد سجل اختراعه هذا سنة ١٨٧٦ . وكان مثل والده يُعنى كل العناية بتعليم الصم وتخفيف متاعبهم حتى عين أستاذا لفسيولوجيا الصوت « بجامعة بوسطن » سنة ١٨٧٢

أن يفيده عن المعلمات ، والمدارس التي تُعنى بتعليم الأطفال الصم أو فاقدي البصر . فنزلنا على نصيحة الطبيب ، واتجهنا إلى مدينة واشنجطن لنقابل الدكتور (بل) ، وكان والدي في حالة من الحزن والأسى تطيف به هواجس شتى ، على حين كنت أجد لذة ومتعة في الانتقال من مكان إلى مكان غير شاعرة مطلقا بما كان يعانيه والدي من آلام .

وعلى الرغم من صغر سني ، أدركت في الحال رقة شمائل الدكتور (بل) ، وجميل عطفه : الأمرين الذين حبباه إلى قلوب الكثيرين من الناس . ذلك إلى أن ما أنجزه من أعمال مدهشة جعلتهم يعجبون به أيما إعجاب . أجلسني الدكتور على ركبتيه ؛ وسمح لي أن أفحص ساعته ثم جعلها تدق مرات ؛ وسرعان ما فهم الدكتور مدلول إشاراتي ؛ وما إن أدركت ذلك حتى ازددت له حبا وتعلقت به كل التعلق ؛ ولم يدر بخلدي وقتئذ إن هذه المقابلة ستكون الباب الذي سألجه ، فأنتقل من الظلام إلى النور ، ومن العزلة والوحشة إلى الصداقة وعشرة الناس ، و إلى المعرفة والحب .

نصح الدكتور (بل) لوالدي بأن يتصل بالمستر أنجانوس Anganus مدير معهد بركنز Perkins في مدينة بوسطن (وهو المعهد الذي قام فيه الدكتور هاو Howe بخدماته الجليلة التي أفادت

العميان) و يسأله إن كان عنده معلمة تستطيع أن تتولى تعليمى من الآن .

فبادر أبى إلى الإتصال به ولم تمض بضعة أسابيع حتى وصله خطاب من الدكتور بل يبشره بأنه وجد المعلمة المنشودة فاطمأن فؤاده وارتاحت نفسه ، وكان هذا فى صيف سنة ١٨٨٦ . ولكن المعلمة ، الآنسة صاليفان ، لم تحضر إلا فى مارس سنة ١٨٨٧ .

وهكذا خرجت من مصر ، ووقفت على أبواب سيناء وتجلت قوة ربانية على روحى فوهبتنى البصر ، وأدركت الكثير من العجائب ومن أعلى الجبل المقدس استمعت إلى صوت ينادينى : إن المعرفة محبة ، ونور ، وهدى .

الفصل الرابع

حضور معلمتى : آن صاليفان

ان أهم يوم أذكره فى حياتى، هو اليوم الذى حضرت فيه معلمتى الآنسة آن منسفيلد صاليفان (Anne Mannsfield Sullivan) . وإنى ليأخذنى العجب كلما أتأمل فى ذلك التناقض العظيم الذى لا يحد ، بين الحياتين اللتين وصل بينهما حضورها فى اليوم الثالث من شهر مارس سنة ١٨٨٧ قبل أن أتم السابعة من عمرى .

ففى عصارى ذلك اليوم التاريخى كنت واقفة عند مدخل البيت خرساء أترقب . فحزرت من إشارات أمى الغامضة ومن الحركة والذهاب والمجىء فى الدار ، أن شيئاً غير عادىّ على وشك الحدوث ، فمضيت إلى الباب ؛ ووقفت عند السلم ؛ وكانت أشعة الشمس تنفذ من خلال شجيرات الياسمين البرى ، التى بسطت فروعها على المدخل كله فتقع على وجهى المتطلع التواق . وكانت أصابعى تلمس ،

بطريقة لاشعورية ، أوراق الشجر ، والزهور التى تفتحت أكمامها تحية لمقدم الربيع الجنوبى الرائع ؛ ولم أكن أدرى آنئذ ما يدخره لى المستقبل من عجائب ومن مدهشات، فقد ظل الغضب والمرارة تنتابانى عدة أسابيع طوال ، واعترانى شىء من الخمول والتراخى بعد تلك المجاهدة العنيفة .

هل حدث لك مرة وأنت راكب سفينة فى البحر شملها ضباب كثيف ، فبدا لك فى شكل ظلام أبيض ملموس يكاد يحبس عليك أنفاسك ، و بدت السفينة الكبيرة فى حالة توتر وتلهف تتحسس طريقها نحو الشاطىء بوساطة المسبار و « الشاقول » ، وأنت واقف على سطحها تترقب ماعسى أن يحدث ، ، وقلبك خفاق مضطرب ؟ فقد كنت أنا نفسى فى مثل موقف هذه السفينة قبل أن يبدأ تعليمى ، إلا أنى كنت من غير أبرة بحرية أهتدى بها ولا مسبار معى يرشدنى إلى ماأنا مقدمة عليه ، فلم تكن لدى وسيلة اعرف بها مدى قرب الميناء منى ، وكانت نفسى تنادى النور ! النور ! علىّ بالنور ! و إذا بنور الحب يسطع علىّ فى هذه الساعة .

شعرت بخطوات تقترب منى، فمددت يدى ظانة أنى أمدها إلى

أمى فتناولتها إنسانة غيرها حملتنى بين يديها ، فـكانتا يدا تلك التى حضرت لتـكشف لى عن كل شىء . وأهم من كل شىء أنها أحبتنى .

وفى صباح ثانى يوم حضرت فيه معلمتى ، أخذتنى إلى حجرتها وقدمت إلى دمية هدية من أطفال معهد بركنز الصغار المكفوفى الأبصار ، ألبستها لورا بريدجمن بيديها و إن كنت لم أعرف ذلك الا فيما بعد . فلعبت بالدمية برهة ثم تهجت الآنسة صاليفان كلمة دمية doll على يدى فاهتممت بلعب الأصابع هذا أى إهتمام ، وحاولت أن أحاكيه ، فلما أفلحت فى عمل الحروف بالدقة المطلوبة زُهيت زهو الأطفال ، وفرحت فرحهم ، واندفعت أهبط السلالم لملاقاة والدتى ، وعملت الحروف التى تدل على كلمة دمية ، من غير أن أدرى أنى كنت أتهجى كلمة ما ، بل لم أكن أدرى بوجود أشياء اسمها كلمات ، و إنما أدع أصابعى تتحرك من قبيل المحاكاة الشبيهة بمحاكاة القردة ؛ ثم تعلمت فيما بعد أن أتهجى بهـذه الطريقة غير المفهومة عدداً كبيراً من الألفاظ مثل (دبوس) Pin وقبعة Hat و بعض الأفعال مثل اجلسى (Sit) ، وقفى Stand ، وسيرى Walk . ولـكن معلمتى ظلت معى عدة أسابيع قبل أن أعرف أن كل شىء له

اسم يعرف به وذات يوم ، بينما أنا ألعب بدميتى الجديدة ، جاءت الآنسة صاليفان ووضعت فى حجرى دميتى الكبيرة المصنوعة من الخرق وتهجت لى كلمة دميه (Doll) محاولة أن تفهمنى إن هذه الكلمة تطلق على كل من الدميتين . وكنا وقبل ذلك اليوم نفسه قد تنازعنا حول كلمتى (كوب) Mug ، و (ماء) Water فكانت الآنسة تحاول أن تغرس فى نفسى أن M u g هى Mug وأن W a t e r هى Water ولكنى تماديت فى الخلط بين اللفظتين حتى يئست منى المعلمة وتركت الموضوع لتعود اليه فى فرصة أخرى . على أن كثرة محاولاتها هذه استنفدت صبرى ، فغضبت وتناولت الدمية الجديدة ، وألقيت بها على الأرض فى عنف وشدة ، وسررت كل السرور عندما شعرت بكسارتها ملقاة عند قدمى . ولم يحدث غضبى هذا أى حزن أو ندم فى نفسى ، لأنى لم أحب هذه الدمية قط . فليس فى عالم الصمت والظلام الذى أعيش فيه عاطفة قوية ، ولا حب ولا رقة . فلما أحسست بمعلمتى تكنس ما تكسر من الدمية ، وتدفعه إلى جانب الموقد ارتاحت نفسى ، فقد زال عنى سبب من أسباب غضبى . ولما أحضرت لى المعلمة قبعتى أدركت أنها ستمضى بى إلى حيث ضوء الشمس الدافىء . فلما خطرت

هذه الفكرة ببالى — إن كان ثمة إحساس لا كلمة له يمكن أن يسمى فكرة — جعلت أثب وأقفز فرحاً وسروراً .

فانحدرنا فى الطريق حتى بلغنا موضع البئر ، يجذبنا أرج الياسمين البرى الذى كانت شجيراته تغطى البئر كلها . وكان عندها شخص يمتح ماء فوضعت المعلمة يدى تحت الصنبور فجرى عليها الماء بارداً . عندئذ تهجت كلمة ماء Water على يدى الأخرى فى بطء أولا ثم بسرعة . فلبثت ساكنة أحصر اهتمامى فى حركات أصابعها ، و إذا بى أشعر فجأة بشعور غامض مبهم - شعرت بشىء كنت قد نسيته منذ زمن طويل ، وتولتنى هزة فكرة عائدة إلى نفسى - لقد انكشف لى سر اللغة بشكل ما . فعرفت حينئذ أن (Water) تدل على ذلك الشىء السائل البارد - وما عتمت هذه الكلمة الحية أن أيقظت نفسى وأضفت عليها النور ،و بعثت فيها الأمل والسرور - فقد فكتها من عقالها وأطلقتها حرة . نعم مازالت أمامى حواجز كثيره وعقبات جمة ولكنها حواجز وعقبات تزول بمرور الزمن

غادرت موضع البئر — وكلى تلهف على أن أعرف أن لكل شىء اسما يعرف به ، وكل اسم يستحدث لى فكرة جديدة . فلما

عدنا إلى الدار بدا لى أن كل شيء أمسه بيدى قد امتلأ حياة ، وصرت أنظر إلى كل شيء بتلك النظرة العجيبة الجديدة التى طرأت على . فلما دخلت باب الدار تذكرت الدمية التى كسرتها وتحسست طريقى إلى الموقد ، والتقطت ماتناثر من كساراتها ، وحاولت جهدى أن أعيدها سيرتها الأولى ، ولكن عبثا ماحاولت. فأغرورقت عيناى بالدموع وأدركت سوء مافعلت . ولأول مرة فى حياتى شعرت بالندم والحزن فى نفسى .

تعلمت فى ذلك اليوم ألفاظا كثيرة منها أم ، وأب ، وأخت ، ومعلمة ، وهى ألفاظ جعلت الدنيا تزدهر أمامى ، كما ازدهرت عصا هارون [1] وحفلت بالأزاهير . وثق بأنك لن تجد طفلا أسعدمنى وأنا فى مهدى مساء ذلك اليوم الحافل بالحوادث ، أستعيد من جديد المسرات التى جلبها لى معه ولأول مرة فى حياتى تطلعت إلى مجيء يوم جديد .

---

(١) عصا هارون : هارون أخو موسى عليه السلام وعصا هارون — كما جاء فى العهد القديم — سفر العدد ، الاصحاح السابع عشر (قد أفرخت . . أخرجت فروخا وأزهرت زهرا وانضجت لوزا)

الفصل الخامس

كرم الطبيعة وقسوتها

لازلت أذكر الكثير من الأحداث التي جرت لى فى صيف سنة ١٨٨٧ ، وهو الصيف الذى تيقظت فيه روحى وتنبهت فجاءة من غفوتها الطويلة . فلم أكن أعمل غير أن استكشف كل شىء وأتعرفه بيدى ، وأتعلم اسمه الذى يطلق عليه . وكلما زاد تناولى للأشياء المختلفة وفحصها ، واتسعت معرفتي بما لها من أسماء ومنافع ازداد شعورى بالاتصال بالناس قوة ، وامتلأت نفسة به سرورا .

ولما جاء الربيع وحل موسم أزهار الأقاحى ، والشقائق، جعلت الآنسة صاليفان تأخذ بيدى وتسير بى عبر الحقول حيث يعمل الزراع فى فلح الأرض و إعدادها للبذار، أو كانت تذهب بي إلى ضفاف نهر تنسى (Tenessee) حيث نجلس على العشب الدافىء لأتلقى أول دروس لى عن الطبيعة وكرمها . فتعلمت كيف تجعل الشمس

والمطر الأرض تنبت كل شجرة تبهج رؤيتها الناظرين ، وتصلح ثمارها طعاما للآكلين ؛ وكيف تبني الطير أعشاشها ، وتعيش في شتى البلاد وتسعد فيها ؛ وكيف تجد السناجيب ، والظباء ، والأسود الكواسر وغيرها من المخلوقات رزقها ومأواها .. وكلما ازددت معرفة بالأشياء ، واتسعت خبرتي بها قوي شعوري بما في الدنيا التي أعيش فيها من مسرات ومباهج . وقبل أن أتعلم حل مسألة حسابية بزمن طويل ، أو أعرف وصف شكل الأرض ، علمتني الآنسة صاليفان أن أشعر بما في الغابات من جمال ، وبما في كل ورقة من أوراق العشب ، وبما في ثنايا يدى أختي الصغيرة من « غمازات » قبل أن تعلمني ذلك كله عمدت إلى ربط أفكاري الأولى بالطبيعة ، وأشعرتني بأني والطير والزهر إخوان سعداء .

ومع ذلك فقد حدث نحو هذا الوقت ما علمني أن الطبيعة ليست كريمة دائما . فبينما كنت عائدة مع معلمتي إلى البيت بعد رحلة طويلة على الأقدام في صباح يوم صحو جميل ، اشتدت حرارة الجو فجأة ، وزاد جفافه ، فاضطررنا إلى التوقف عن المسير مرتين أو ثلاثا لنستريح في ظل شجرة من تلك الأشجار الكثيرة القائمة على جانبي الطريق

ووتفياً نا ظل شجرة كرز برى غير بعيدة عن البيت ؛ وكان ظلها مريحا تسلقها سهلا ميسوراً ؛ وسرعان ما تسلقتها بمعاونة معلمتى ، وجعلت أتسلقها إلى أن بلغت فيها مقعدا بين أغصانها ؛ وكان الجو فى هذا المكان المرتفع عليلا والهواء منعشا مما دعا الآنسة صاليفان أن تقترح علينا تناول الغداء على هذه الشجرة ، فوعدتها بأن أظل هادئة أن التزم مكانى فيها لا أبرحه حتى تذهب إلى البيت وتعود ومعها الغداء .

ولكن تغييرا فجائيا طرأ على الشجرة . فقد خلا الجو مما فيه من حرارة الشمس ، وانقلب أسود قاتما ؛ وقد عرفت ذلك من زوال الحرارة عنه ، فهذه الحرارة معناها لى النور . ثم فاحت من الأرض رائحة غريبة عرفت أنها الرائحة التى تسبق هبوب العاصفة دائما . واستولى على خوف لم أعرف له اسما ، وشعرت بالوحشة والوحدة ، وكنت بعيدة كل البعد عن جميع أحبابى وأصدقائى ، وعن الأرض اليابسة ؛ واحتوانى ذلك العالم العظيم المجهول . فلبثت ساكنة أتوقع ما تأتينى به الحوادث ، وتجرى به الأقدار . وخامرنى فزع قارس ، وجعلت أتشوق إلى عودة معلمتى ، ولكنى كنت أتوق قبل كل شىء إلى النزول عن هذه الشجرة .

ومرت بى لحظة من صمت مشئوم ، أعقبتها حركات واسعة فى أوراق الشجر . ثم أصابت الشجرةَ رعدة قوية اهتزت لها فروعها واضطربت . وهبت الريح قوية عاتية وكادت أن تلقى بى إلى الأرض لولم أتشبث بالفرع الذى أنا عليه بكل ما أوتيت من قوة . فترنحت الشجرة وتوترت ، وجعلت أغصانها تتقصف ، وتسقط علىّ مدرارا ، وتملكنى حافز قوى ، جبار ، يستحثنى إلى القفز إلى الأرض . ولكننى تجمعت فى مرفق الشجرة ، وظلت فروعها تتلاطم حولى برهة ، وأحسست بذلك التقصف يحدث الفينة ، بعدالفينة ثم شعرت بشىء ثقيل قد سقط . ولم يلبث أثر الصدمة أن اتجه صعداً فى الشجرة حتى وصل إلى الفرع الذى أجثم عليه ، فتحرك فى نفسى الشعور بالترقب والانتظار قويا . و بينما أفكر فى سقوط الشجرة وسقوطى معها ، إذا بمعلمتى تأخذ بيدى وتعاوننى على التخلص منها والنزول إلى الأرض . فتعلقت بها وأنا مضطربة من الفرح والسرور لأنى وجدت الأرض اليابسة الثابتة تحت قدمى مرة أخرى ، وتعلمت درسا جديدا : فقد تشن الطبيعة على أبنائها حربا صريحة ، وأدركت أن وراء ملمسها اللين مخالب حادة خداعة .

مضى وقت طويل على هذا الحادث قبل أن تعود نفسى فتحدثنى بتسلق شجرة أخرى ، لأن خطوره بفكرى كان يملأنى رهبة وارتياعا . ولكن شجرة « المستحية » لها روعه خاصة حلوة إذا ما كانت فى كامل ازدهارها و بهجتها ، فهى التى حفزتنى فى النهاية إلى التغلب على ما خالج نفسى من مخاوف التسلق ورهبته . ففى صباح يوم جميل من أيام الربيع كنت منفردة بنفسى فى ظُلتنا الجديدة فى الحديقة، وفى يدى كتاب أطالعه، و إذا بى أشعر بأرج حلو عجيب دقيق يفوح فيعطر الجو ؛ فتحركت ، ونهضتُ ومددت يدى تدفعنى فطرتى التى فطرت عليها ، كأن روح الربيع قد تسللت إلى الحديقة . فسألت نفسى ما عسى أن يكون هذا ؟ وما لبثت حتى تبينت رائحة زهور « المستحية » فتحسست طريقى إلى طرف الحديقة، لأنى كنت أعرف أن شجرة « المستحية » هذه تقوم على مقربة من السياج عند منعرج الطريق ؛ وها هى ذى تهتز فى ضوء الشمس الدافيء تكاد فروعها المثقلة بالأزاهير أن تلمس ما تحتها من عشب نام طويل . تُرى هل كان فى العالم شيء أجمل من هذا من قبل ؟ إن زهرها الرقيق ليجفل أمام أخف لمسة أرضية ، فكأن شجرة من

أشجار الجنة قد انتقلت منها وحلت فى أرضنا هذه ! سلكت طريقى وسط شآبيب من أوراق الزهر ظلت تتساقط علىّ ، وجعلت أسير وأسير حتى بلغت جذع الشجرة الضخم ! ثم تريثت لحظة أتردد بين الإقدام والإحجام ، ووضعت قدمى فى مرفق الشجرة الواسع ، ونهضت أتسلقها ، فوجدت فى ذلك عنتا ومشقة كبيرة لأن أغصان الشجره كبار ولحاؤها يؤذى يدىّ الصغيرتين . ومع ذلك كنت أشعر بإحساس لذيذ من جراء إقدامى على عمل شيء عجيب غير عادىّ . فطفقت أتسلق ، وأتسلق إلى أعلا ، فأعلا ثم إلى أعلى حتى بلغت مقعدا صغيرا كان شخص ما وضعه فى هذه الشجرة منذ زمن طويل حتى أصبح جزءا منها ، فتبوأته ، وجلست عليه برهة طويلة وأنا أشعر بنفسى كأنى أشبه بحورية جنية جلست على سحابة وردية اللون. ثم بعد ذلك جعلت أقضى ساعات طوالا على تلك الشجرة التى صارت جنة لى أفكر أفكارا جميلة وأحلم أحلاما زاهية لذيذة .

الفصل السادس

تيقظ الروح

الآن وقد حصلت على مفتاح اللغة كلها ، أصبحت أتوق إلى تعلم كيف أستفيد من هذا المفتاح . فالأطفال الذين يسمعون يكسبون اللغة من غير حاجة إلى بذل جهد خاص؛ فهم يتصيدون الألفاظ التى تصدر من شفاه الناس فى سرور ولذة — يتصيدونها ، وهى طائرة ، إن صح هذا التعبير . أما الطفلة الصغيرة الصماء فلا مندوحة لها عن أن تلتقط هذه الألفاظ بطريقة وئيدة كثيرا ما تكون شاقة مؤلمة لها . ولكن أيا كانت الطريقة العملية التى نتعلم بها ، فالنتيجة مدهشة وعجيبة كل العجب ، فانا نتقدم خطوة خطوة من مجرد تسمية الشىء إلى أن نقطع تلك المسافة الشاسعة التى بين لفظ نتعلمه فى تلعثم و بطء ، و بين خطرة الفكر السريعة فى بيت من شعر شكسبير ...

لم أكن أسأل معلمتى فى بداية الأمر غير أسئلة قليلة عما كانت تلقيه علىّ من معلومات جديدة ، فأفكارى مازالت غامضة ، وحصيلتى من الألفاظ نزرة قاصرة ؛ أما بعد أن اتسعت معرفتى بالأشياء وحصلت على طائفة من الألفاظ أخذت أسئلتى تزداد باستمرار . فقد انفسح أمامى ميدان البحث وصرت أعود إلى الشىء الواحد أدرسه المرة بعد المرة وكلى شوق لأن أزداد به علما وخبرة ، وكثيرا ما كانت اللفظة الواحدة الجديدة التى لم يكن لى بها عهد تستثير فى نفسى صوراً ذهنية سبق أن نقشتها فى صفحة عقلى خبرة سابقة .

لست أنسى صباح ذلك اليوم الذى سألتها فيها لأول مرة عن معنى كلمة « الحب » . سألتها عنها وأنا لم أعرف بعد غير طائفة قليلة من الألفاظ . وذلك أنه حدث أن عثرت فى الحديقة بمجموعة صغيرة من أزهار البنفسج عند أول ظهورها فقطفتها وأتيت بها معلمتي ، فسرّها ذلك كل السرور وحاولت أن تقبلنى ، فتمنعت ، لأنى لم أكن آنئذ أسمح لأحد أن يقبلنى غير أمى ، فاكتفت الآنسة صاليفان بأن طوقتنى بذراعها وتهجت فى يدى جملة « أحب هيلين » . فسألتها ما الحب ؟ فقربتنى منها ، وأشارت بيدها إلى

قلبي ، فكان ذلك أول مرة تفطنت فيها إلى خفقان القلب وضرباته .
ولكن عبارتها حيرتني كل الحيرة ، إذ لم أكن أستطيع فى ذلك الوقت أن أفهم شيئاً إلا إذا لمسته بيدى ؛ فعدت إلى البنفسج الذى فى يدها أشمه ؛ ثم سألتها ثانية بالإشارة وبالعبارة : ما فحواه : هل الحب هو ما فى هذه الأزهار من حلاوة ؟ فأجابت بالنفى ؛ وعندئذ عدت إلى التفكير ؛ وكانت الشمس الدافئة تتألق فى السماء ، فأومأتُ إلى الجهة التى كانت تصلنى منها حرارتها وقلت : أوليس هذا هو الحب ؟

فقد خيل إلىّ أنه لا يوجد فى العالم شىء أبهى من الشمس التى تجعل حرارتُها كل شىء ينمو . ولكن الآنسة « صاليفان » هزت رأسها هزة النفى ، فزادت حيرتى ، وزاد ارتباكى ، وشعرت بحرارة الإخفاق وخيبة الأمل ، وظننته غريباً عن معلمتى أن تعجز عن أن ترينى الحب !

وبعد يومين أو ثلاثة كنت مشغولة بتنظيم خرزات من حجوم مختلفة نظما متسقاً ، فأنظمها خرزتين كبيرتين فثلاثا صغاراً ، وهكذا دواليك . ووقعت فى عدة أخطاء ، صححتها لى معلمتى المرة بعد المرة ،

فى صبر طويل وأناة رفيقة . وأخيراً أدركت أنى ارتكبت غلطة فى توالى المجموعات من الخرز ، ما كان لى أن أقع فيها لوضوحها . فعدت ، وركزت انتباهى كله فى الدرس لأحفظه ؛ وحاولت أن أفكر فى كيفية ترتيب الخرزات ، وإذا بمعلمتى ، الآنسة صاليفان، تلمس جبينى بيدها ؛ ثم تهجت فى يدى كلمة : فكِّرى ! وأكدتها توكيداً واضحاً : فأدركتُ فى مثل وميض البرق أن لفظة فكِّرى هذه تدل على تلك العملية التى تجرى فى رأسى . وكان ذلك أول عهدى بإدراك فكرة معنوية مجردة ، وأنا متفطنة كل التفطن لما أفعل .

ولبثت برهة طويلة ساكتة هادئة ، لا أفكر فى الخرزات التى فى حجرى ، بل لأجد معنى لفظة الحب على ضوء هذه الفكرة الجديدة التى حصلت عليها ؛ وكانت الشمس قد اختفت وراء الغمام ، وأخذ المطر يسقط رذاذاً ، ثم بعد قليل تجلَّت فى كامل بهائها ، وعظيم روائها .

فسألت معلمتى : أفليس هذا الحب إذن ؟

فقالت : الحب شىء مثل السحب التى كانت فى السماء قبل

أن تبرز الشمس منها ، ثم تحدثت إلىّ فى عبارات أبسط مما تحدثت إلىّ به من قبل ، فإنى لم أكن أحسن فهمها فى ذلك الوقت ، فقالت: أنت لا تستطيعين أن تلمسى السحب ، أليس كذلك ؟ ولكنك تستطيعين أن تشعرى بالمطر وتدركى مدى فرح الأزهار وابتهاج الأرض العطشى بالماء ينزل عليها عقب يوم اشتدت حرارته وازداد جفافه . وكذلك أنت ، لا تستطيعين أن تلمسى الحب ، ولكن فى مقدورك أن تشعرى بالحلاوة يضفيها على كل شىء ، فبدون الحب لا تكونين سعيدة ولا ترغبين فى اللعب .

وسرعان ما تجلت لى الحقيقة الجميلة رائعة ، وأدركت أن ثمة خيوطا وأسبابا تصل بين روحى وأرواح سائر الناس .

وكانت الآنسة صاليفان عزمت من أول الأمر على أن لا تتحدث إلىّ إلا كما تتحدث إلى أى طفل سوىّ يسمع ويرى ، ولم يكن فرق بينى وبينه غير أن معلمتى كانت تتهجى الجمل على يدى ، بدلا من أن تنطق بها بشفتيها . فان كنت لا أعرف الألفاظ والمصطلحات التى يقتضيها حسن التعبير عما يجرى فى نفسى زودتنى

بها معلمتى ، وكانت تقترح على أن نغير مجرى الحديث الذى أخذنا فيه إذا لم أستطع أن أجاريها ، فنأخذ فى حديث غيره .

وظللنا عدة سنوات على هذا المنوال . فالطفل الأصم لا يتعلم فى شهر ، ولا فى سنتين ، أو ثلاث . إن الطفل الصغير السامع يتعلم فى يسر وسهولة المصطلحات والتعبيرات التى لا عداد لها ولا حصر والتى تستعمل فى أبسط الأحاديث اليومية العادية ، يتعلمها من كثرة تكرار سماعها ، وبالتقليد والمحاكاة . فما يدور فى بيته من كلام ، ويجرى بين ذويه من أحاديث ، يستثير عقله ويوحي إليه بموضوعات جديدة تحفزه إلى التعبير عن خواطره وخلجات نفسه تعبيرا تلقائياً ؛ على حين أن الطفل الأصم قد حرم تبادل الأفكار الطبيعى هذا .

ولست أشك فى أن معلمتى أدركت هذا كله ، فجعلت نصب عينيها أن تزودنى بشتى البواعث والحوافز التى تعوزنى . فكانت تعيد علىّ كل ما تسمعه حرفا بحرف ، كلما أمكنها ذلك ، وتشرح لى كيف أستطيع أن أشترك مع الناس فى الحديث .

مضى على ذلك زمن طويل قبل أن أجد فى نفسى شيئاً مناسبا للمقام أقوله فى الوقت الملائم ، إذ لا يخفى أن كلا من الأعمى والأصم

يجد مشقة كبيرة فى الاستمتاع بنعمة الكلام مع الناس ، فما بالك بالطفل الأصم الأبكم الفاقد البصر ! إنه لا يستطيع أن يميّز وحده حتى نغمة الصوت من دون أن يعاونه أحد ؛ ولا أن يمر بسلّم الأصوات كله ، ذلك الذى يجعل للألفاظ دلالة ومعنى ؛ ولا هو يستطيع أن يلحظ ما يبدو على أسارير المتكلم من دلائل التعبير والإفصاح . فكثيرا ما تكون النظرةُ روحَ ما يقوله المرء ويتحدث به .

الفصل السابع

التعلم من الكتب والحياة

كانت ثانى خطوة فى تربيتى أن أتعلم القراءة .

فبعد أن عرفت هجاء بضع كلمات أعطتنى معلمتى جزازات من الورق المقوى طبعت عليها بضع كلمات طبعا بارزا ، وسرعان ما أدركت أن كل كلمة ، مطبوعة منها ، تدل على شىء ، أو على فعل ، أو صفة . وكان لى إطار خاص أستطيع أن أكوّن فيه من الألفاظ جملا قصارا . ولكن قبل أن أبدأ فى وضع الجمل فى هذا الإطار كنت أضعها على ذوات الأشياء نفسها أولا . وحدث أن عثرت مرة بجزازات من الورق عليها كلمات : « دمية » (Doll) و« على » (on) و« سرير » (Bed) . فوضعت كل جزازة منها على الشىء ذاته الذى تمثله وتدل عليه ، ثم جئت بدميتى ووضعتها على السرير إلى جانبها ، ثم وضعت كلمتى « على » و« سرير » إلى جانبها كذلك ، فتكوّنت لى جملة من الألفاظ ، وفى الوقت نفسه ، تكوّنت كذلك من الأشياء ذاتها .

وقالت لى الآنسة صاليفان إنى وضعت مرة كلمة « بنت » (Girl) على ميدعتى (مريلتى) ، ثم مضيت إلى صوان الملابس ووقفت فيه ، ورتبت على رفوفه لفظتى « على » و « الصوان » . وقد سرنى ذلك سرورا لا يعدله سرورى بأى نوع آخر من أنواع اللعب .

فكنت أقضى الساعات ألعب مع معلمتى : نرتب كل شىء فى الحجرة على أساس جمل مكونة من أعيان الأشياء ، لا من ألفاظها الدالة عليها . ولم تكن غير خطوة واحدة بين جزازة الورق المطبوعة و بين الكتاب . فتناولت كتابى ، وكان كتاب « المطالعة للمبتدئين » (Reader for the Beginners) وجعلت أتصيد منه الكلمات التى عرفتها من قبل ، فإذا عثرت عليها سررت بها سرورى بلعبة من لعبى . وهكذا بدأتُ أتعلم القراءة بهذه الطريقة . أما من حيث الوقت الذى شرعت فيه أقرأ قصصا متصلة فسأحدثك عنه فيما بعد .

لم أتلق دروسا منظمة إلا بعد زمن طويل ، ومع ذلك ، منذ ما كنت أدرس بكل جد ونشاط ، كان الدرس يبدو لى أقرب إلى اللعب منه إلى الشغل. فكانت الآنسة صاليفان توضح لى كل شىء

تريد أن تعلمنى إياه بقصة جميلة ، أو بقصيدة رائعة من عيون الشعر ؛ وكانت تتحدث إلىّ فى كل شىء يسرنى ، أو يهمنى أن أعرفه ، كما لو كانت هى نفسها طفلة صغيرة ، حتى صار كل ما ينظر إليه الأطفال عادة بشىء من الرهبة والفزع ، وكل ما يعدونه أصعب من مسائل الحساب — صار من أحلى ذكرياتى الآن .

ليس من السهل علىّ أن أشرح لك عطف الآنسة صاليفان وحدبها على كل رغبة من رغباتى ، وعلى كل شىء أجد فيه مسرة ومتعة . ولعل هذا العطف، وذاك الحدب ،راجع إلى طول معاشرتها لفاقدى البصر وخبرتها بشئونهم . وزيادة على ذلك العطف فإن لها لقدرة عجيبة على الوصف؛ فكانت تمر بالتفصيلات غير الشائقة مراً سريعاً .فلم يحدث مرةأن ضايقتنى بأسئلةلتعرف إن كنت نسيت درس أول من أمس ، أم ما زلت أذكره . وكان من عادتها أن لا تقـدم إلىّ النواحى الفنية الجافة ، من شتى العلوم ومختلف الفنون ،إلا شيئاً فشيئاً ، وبذلك جعلت كل موضوع عالجته معى كأنه حقيقة قائمة ، فلم يكن يسعنى إلا أن أتذكر كل ما تعلمنى إياه .

وكنا نقرأ وندرس معاً فى الهواء الطلق ، ونفضـل الغابات

المشمسة على العمل داخـــل أسوار الدار . فلا عجب إن كان فى دروسى الأولى ريح الغابة ورائحة أشجار الصنوبر الراتنجية الجميلة ، اختلط بها أرج العنب البرى . هذا ، وقد تدربت ، وأنا جالسة فى ظلال شجيرة الخزامى البرية ، على أن أجد فى كل شىء درساً وعبرة ،ووحياً، وإلهاما ؛ وبذلك علمنى جمال الأشياء كلّ ما فيها من منافع . فلكل شىء يستطيع أن يطنّ ، أو يغنى ، أو يزهر ، أثره فى تربيتى — من الضفادع التى لا نهاية لنقيقها ، إلى بعض أنواع من الحشرات التى كنت أمسك بها فى يدى حتى تنسى همّ ما وقعت فيه من حيرة واضطراب ، فتصوّت وتطنّ طنينها الغريب — ومن الأفراخ الصغار التى لا تزال فى زغبها ، والأزهار البرية ، مثل بنفسج الراعى ، وأشجار الفاكهة المزهرة ؛ وشعرت بلوزات القطن المتفتحة ؛ ولمست أليافها الناعمة ؛ وشعرت بصوت الريح بين سيقان الذرة ، وحفيف الأوراق الطويلة الحريرى ، وغطيط المهر المحنق عند ما نلحق به ونمسك به لنضع الحكَمة فى فمه . ألا ! ما أشد ما أذكر رائحة نَفَسه الحرّيف التى يشتم منها أثر البرسيم !

وكنت أستيقظ أحيانا عند الفجر ثم أتسلل إلى الحديقة ،

والندى الثقيل على الأعشاب والأزهار . لايعرف إلا القليلون من الناس السرورَ الذى يجده الإنسان فى نفسه عند مايضغط الورد على يديه فى أناة ورفق ، أو عند ما يدرك حركة أزهار السوسن الجميل وهو يتأرجح فى نسيم الصباح ، وقد أطبقت الزهرة التى قطفتها على حشرة ، فأشعر بصوت جناحيها الضعيفين ، وهما يحتكان بعضهما ببعض من جراء مااعتراها من فزع فجائى ، عند مايشعر ذلك المخلوق الصغير بما سُلط عليه من ضغط من الخارج .

وكان ثمة ملاذ آخر حبيب إلى نفسى ؛ ذلك هو البستان الذى تنضج فيه أثمار الفاكهة فى أوائل شهر يوليه ، فترى الخوخ الكبير المكسوّ بالزغب الناعم يتدلى حتى يصل إلى يدى ؛ وعند ما تهب النسائم المرحة خلال الأشجار يتساقط التفاح عند قدمى . فما أشد سرورى عند ما أجنى ثمار الفاكهة فى ميدعتى وأضغط بوجهى على وجنات التفاح الناعمة وهى لا تزال دافئة من أثر حرارة الشمس ، ثم أثب وأقفز راجعة إلى البيت ! .

وكان موضع نزهتنا الحبيب إلينا قريباً من مرسى كيلر ، وهو مرسى عتيق لا يعدو أن يكون رصيفاً من الخشب متهدما مقاما على

نهر تنسّى ، كان يستعمل فى أثناء الحرب الأهليةلإنزال الجند . فكم من ساعة هنية قضيناها هنا ، ندرس الجغرافيـــا بطريق اللعب ، أنشىء سدوداً من الحصى ، وأبنى جزائر ، وأحتفر بحيرات ، وأشق مجارى للأنهار ؛ كل ذلك فى لعب ومرح ! ولم يخطر ببالى مرة أنى كنت أتلقى درساًمن الدروس . بل كنت أصغى إلى الآنسة صاليفان بدهشة متزايدة وهى تصف لى الدنيا الـكبيرة المستديرة الشكل ، وما فيها من جبال ملتهبة ،ومدائن مطمورة ، وأنهار متحركةمن الجليد ، وأشياء أخرى غريبة. وكانت تصنع لى خرائط بارزة من الصلصـال حتى تمـكننى من لمس الوديان وسلاسل الجبال ، وأتابع بأصابعى مجارى الأنهار المتعرجة ؛ وكنت أحب ذلك كله وأستمتع به .

أما تقسيم الأرض إلى مناطق ، فـكان هو والقطبان أمراً يحيرنى ويضايق عقلى . وكانت المعلمة توضح لى هذه الأمور بوساطة استعمال الخيط والعصا التى كانت تمثل بها القطبين ، فيبدو لى الأمر كله حقيقةماثلة، حتى إن مجرد ذكر المنطقة المعتدلةليوحى إلى بسلسلة من دوائر الخيط . وما زلت أعتقد لو أن إنساناً حاول وقتئذ أن يُقنعنى بأن الدببة البيض تتسلق القطب الشمالىّ مثلا ، لما وجد

فى ذلك أية صعوبة ، ولـكان حليفه النجاح .

ولعل الحساب هو المادة الوحيدة التى لم أكن أميل إليها وأحبها، فلم أكن من البداية ميالة إلى علم الأعداد . وقد حاولت الآنسة صاليفان أن تعلمنى العدّ ، بواسطة نظم الخرز مجموعات ، فعلمتنى الجمع والطرح بوساطة ترتيب العُصَيَّات المستعملة فى رياض الأطفال ، ولـكنى لم أكن أطيق صبراً على ترتيب أكثر من خمس مجموعات أو ست فى الوقت الواحد ؛ فإذا ما أتممت ترتيبها على الوجه الصحيح ارتاح ضميرى طيلة اليوم كله ، وسارعت فى البحث عن رفيقاتى اللواتى ألعب معهن وأعبث .

وكذلك تعلمت علمى الحيوان والنبات بهذه الطريقة السهلة البطيئة .

وحدث أن أهدانى فاضل من الفضلاء ؛ غاب عنى اسمه الآن ، مجموعة طيبة من الحفريات من بينها أصداف صغار مخططة تخطيطاً جميلا ، وقطعاً من الأحجار الرملية انطبعت عليها بشكل بارز آثار أقدام الطيور وأثر قطعة من السرخس . فكانت هذه كلها المفاتيح التى فتحت لى كنوز العالم العتيق من قبل الطوفان . وكنت أصغى إلى الآنسة صاليفان بأصابع مرتجفة وهى تصف لى الحيوانات الضوارى

المريعة ، ذات الأسماء الثقيلة النطق ، والتى كانت فى يوم من الأيام تجوس خلال الغابات البدائية تقضم أغصان الشجر الجبار ، وتتغذى بها ، ثم انتهى أمرها بالموت فى المناقع المظلمة فى عصر مجهول . وقد ظلت هذه الحيوانات الغريبة مدة طويلة تقض مضجعى وتقلقنى فى نومى ؛ فقد كانت تلك الحقبة من الزمان الغابر ظهارة كئيبة لوقتنا الحاضر المرح الحافل بضوء الشمس والورد ، الذى يتردد فيه صوت وقع حوافر مهرى الصغير .

وفى مرة أخرى أعطيت صدفة جميلة، تعلمت منها، فى دهشة الطفل وفرحته ، كيف أن حيوانا صغيراً من الحيوانات الرخوة يبنى قوقعته المحواة المصقولة ، و يتخذها مسكنا له يأوى اليه ؛ وكيف أنه فى الليالى الساجية التى لا ريح فيها يحرك الأمواج ، ينشط الحيوان المعروف بالنوتيلوس فيقلع فى سفينته اللؤلؤية ، ويجرى على صفحات الماء الصافية الزرقة فى المحيط الهندى . بذلك حصلت على طائفة صالحة من المعلومات الشائقة عن حيوات أطفال البحار وعاداتهم ؛ وعرفت كيف استطاع المرجان الصغير أن يبنى تلك الجزائر الصغيرة المرجانية الجميلة وسط الأمواج المتـدافعة فى المحيط الهـادى ؛

وكيف أنشأت « الفورامينفرا » الربى والتلول الطباشيرية المنتشرة فى أراض كثيرة . وقرأت لى معلمتى « النوتيلوس ذو الحجرات » (The Chambered Nautitus) وشرحت لى عملية بناء الأصداف التى تقوم بها الحيوانات الرخوة ؛ وقالت إنها ترمز إلى ترقى العقل ؛ فكما أن النوتيلوس هذا الذى يخلق كثيرا من العجائب يغير المادة التى يمتصها من الماء ، ويجعلها جزءا من نفسه ، فكذلك تمر المعلومات التى يحصلها الانسان ، بتغيرات شبيهة بتلك ، حتى تصبح لآلىء من المعانى ودرراً من الأفكار .

وكذلك درست نمو النبات . فاشترينا مرة سوسنة ووضعناها على النافذة فى ضوء الشمس ، فما لبثت براعمها حتى أبدت ما يدل على أنها قاربت أن تتفتح عن أكمامها ؛ وشرعت أوراقها الرفيعة التى تشبه أصابع اليد تفصح فى بطء — وعلى كره منها كما أظن — عن الجمال الذى تخفيه فى نفسها . ومع ذلك فقد ظل هذا التفتح يزداد زيادة سريعة ، فى نظام واتساق ؛ وكان من بين براعمها برعم واحد كبير يفوقها جميعا فى الجمال والروعة ، فجعل يلقى غطاءه الخارجى فى أبهة ومخافة ، كأن الجميلة التى فى ثيابها الحريرية الملساء كانت تعرف

أنها ملكة السوسن غير مدافعة ، وأنها نالت ملكها هذا بحق إلهى، على حين كانت أخواتها الهيابات تخلع ملابسها الخضر على استحياء، إلى أن صار النبات كله غصنا كاملا من الجمال والأرج الفواح

وحدث ذات مرة أن كان أحد عشر ضفدعا صغيرا تعيش فى وعاء من زجاج ،وضع فى نافذة حافلة بشتى أنواع النبات . و إنى لأ ذكر ما شعرت به من تلهف و تشوق إلى استكشاف أمر هذه الضفادع الصغار ،فكان يطيب لى أن أغمس يدى فى الوعاء ،فأشعر بالضفادع تتحرك فى نشاط ومرح و تنزلق من بين أصابعى . وذات يوم حاول ضفدع طموح منها أن يقفز من على حافة الوعاء ،فسقط المسكين على الأرض حيث وجدته وقد بدا عليه أنه فارق الحياة ،لأنه لم يكن به أمارة من أماراتها ، اللهم سوى تحريك ذيله ،ولكنه ما إن عاد إلى الماء حتى اندفع يسبح إلى قاع الوعاء ، وظل يعوم و يعوم فى نشاط ومرح . لقد قفز الضفدع قفزته ، فرأى العالم الكبير ، ثم عاد فاقتنع بأن من الخير له أن يظل يعيش فى بيته الجميل المصنوع من الزجاج تحت شجرة الفوكسيا الضخمة حتى يأتى اليوم الذى يحصل فيه على شرف أن يكون ضفدعا كبيرا مكتمل النمو ، فيمضى عندئذ إلى

السكنى فى بركة الحديقة التى يغشاها ورق الأشجار ، حيث يجعل ليالى الصيف موسيقية تتجاوب بأغنيات حبه وغرامه الغريب .

وهكذا ترى أنى كنت أتعلم من الحياة نفسها . فلم أكن فى بداية أمرى سوى طائفة من أمور ممكنة الحدوث ، فما إن جاءت معلمتى وعملت على تفتيق إمكانياتى الكامنة فى نفسى بالقوة ، ونهضت بها ورقتها ، حتى أخذ الحب والفرح يفيضان من كل شىء حوالىّ ، وأصبح كل شىء يزخر بالمعانى والدلالات . فلم تدع معلمتى منذ حضرت فرصة من غير أن تنتهزها لتوضح لى ما فى الأشياء من جمال ؛ ولم تدخر وسعا فى تفكيرها أو فى عملها ولا فى قدوتها وسلوكها لتجعل حياتى حلوة نافعة .

فعبقرية معلمتى ، وسرعة عطفها ، وحسن كياستها التى كلها حب ، هى التى جعلت السنين الأولى من تعليمى جميلة كل هذا الجمال ؛ فكانت تزودنى فى كل فرصة بالمعلومات اللازمة فى اللحظة المواتية ، مما جعل هذه المعلومات سارة مستساغة . لقد أدركت الآنسة صاليفان أن عقل الطفل أشبه ما يكون بنهر ضحل ينساب راقصاً فى مرح وطرب على مجرى تعليمه الحجرى ، ويعكس على

صفحته زهرة وغصنا هنا ، أو سحابة مهدَّبة هناك؛ وحاولت أن ترشد عقلي وتوجهه ، وهي تعلم أنه يشبه مجرى النهر يجب أن تغذيه روافد من الجبال ، وعيون ثرة مستورة ، حتى يعظم ، ويصير نهرا عميقاً يستطيع أن يعكس على صفحته اللامعة الهادئة التلول العاصفة ، وظلال الأشجار المشرقة ، والسماوات الزرق ، كما يعكس وجه الزهرة الصغير الرقيق .

إن أي إنسان منا يستطيع في يسر أن يدخل طفلا ما في فصل من فصول المدرسة ، ولكن ليس كل مدرس يستطيع أن يجعل ذلك الطفل يتعلم . فان الطفل لا يعمل في مرح وحبور إلا إذا شعر بأنه حر طليق ، سواء أكان مشغولا بعمل يعمله أم كان هادئاً مستريحاً ، فانه يجب أن يشعر بنشوة الانتصار ، ويحس بثبوط الهمة الناشئ من خيبة الأمل قبل أن يقدم بعزم صادق على الاضطلاع بواجباته غير المستساغة ، ويعتزم أن يسلك طريقه مرحا فرحا ، وفي شجاعة ، بين رتابة الكتب المدرسية و « روتينها » الخامل

كانت معلمتي على مقربة مني دائما ، حتى لم يكن يخطر ببالي أنها منفصلة عن شخصي . فلا غرو أن كنت لا أستطيع أن أحدد مقدار

ما يرجع من سروري بالأشياء الجميلة إلى الفطرة والغريزة ، ولا مقدار ما يرجع منه إلى نفوذ معلمتي وتأثيرها في نفسي . فأنا شاعرة بأن كيانها لا ينفصل عن كياني ، وأن مواقع أقدامي في طريقي الذي أسلكه في حياتي إنما تتابع خطوها ومواقع أقدامها هي . فكل ما فيّ من خير إنما يرجع إليها هي ؛ فلا موهبة ، ولا مطمح ، ولا فرح فيّ ، لم تكن هي التي أيقظته بلمستها الحبيبة ويدها الرفيقة .

الفصل الثامن

عيد الميلاد

كان أول عيد ميلاد حل بعـــد حضور الآنسة صاليفان إلى تسكامبيا حادثا عظيما ؛ فكل فرد من أفراد الأسرة أعدّ لى مفاجأة طيبة ؛ ولـكن كان أعظم ماسرنى أنى قمت مع الآنسة صاليفان بإعداد مفاجآت لـكل إنسان . وكانت السرية التى أحاطوا بهـا هذه الهدايا أعظم مافرّحنى وسلاّنى . ولم يدخر أصدقائى أى جهـد فى سبيل استثارة ما فىّ من فضول ومحبة للاستطلاع ، وذلك بما كانوا يعملونه من إشارات وتلميحات ، ومايذكرونه لى من جمل مبتورة غير مفهومة ، وعدونى بأنهم سيطلعوننى على جلية أمرها فى الوقت الملائم . وجعلتُ ألعب مع الآنسة صاليفان لعبــة الحزر والتخمين ، فأفدت منها فوائد كثيرة عن استعمال اللغة أكثر مما كان يمكن أن أستفيده من أية مجموعة منظمة من الدروس . فكنا نجلس

كل مساء حول نار من الحطب متأججة ، ونقوم — الآنسة صاليفان وأنا — بألعاب التخمين والحزر التى كانت تزداد استثارة لنا واستحثاثا كلما اقترب موعد الاحتفال بعيد الميلاد .

وفى ليلة العيد أقيمت فى تسكامبيا شجرة خاصة بتلاميذ البلدة . ودعيت إلى الاشتراك معهم فى الاحتفال ، فوجدتهم قد أقاموا شجرة جميلة وسط حجرة الدراسة ، تلمع وتتلألأ فى الضوء الهادى المسلط عليها ؛ وكانت أغصانها محملة بثمار عجيبة وغريبة كل الغرابة . إنها للحظة بلغتْ فيها سعادتى أقصاها ، فجعلت أرقص وأمرح حول الشجرة بسرور غالب وطرب عظيم . ولما عرفت أنهم أعدوا لكل طفل هدية ازداد فرحى . وقد تفضل القوم الكرام الذين أعدوا هذه الشجرة فاختارونى لأقوم بتوزيع الهدايا على الأطفال . وفى وسط فرحى بهذا العمل لم أعبأ قط بالنظر فى الهدايا التى أعدوها لى خاصة ، ولكن لما فرغت لهذه الهدايا كان صبرى قد نفد ، ولم أعد أقوى على الانتظار حتى يحين موعد افتتاح الاحتفال بعيد الميلاد . وكنت أعلم أن الهدايا التى وصلتنى لم تكن تلك التى سبق أن لمح إليها الأصدقاء بتلك الصورة الشائقة ، وسبق أن قالت لى معلمتى إن الهدايا التى ستقدم

إلىّ أبدع منها وأجمل . ومع ذلك فقد أقنعونى بأن الأولى بى أن أكتفى الآن بالهدايا التى من الشجرة وأدع الأخرى للصباح .

و بعدأن علقت جوار بى تلك الليلة ، كما علق غيرى من الأطفال جواربهم ، ذهبت إلى مخدعى لأنام ، ولـكننى لم أنم بل بقيت متيقظة برهة طويلة ، و إن تظاهرت بأنى نائمة ، قصـد أن أعرف ماذا يفعل «سنتا كلوز » عند حضوره . وأخيراً رنق النوم على عينى فنمت ، و بين ذراعى دمية جديدة ، ودب أبيض جديد . ولما أصبح الصباح كنت أول من أيقظ كل أفراد الأسرة من نومهم بصياحى : عيد سعيد ! عيد سعيد ! ووجدت عـدة مفاجآت ، لا فى الجوارب فحسب ، بل على المنضدة ، وعلى كل كرسى ، وعند الباب ، وعلى وصيد النافذة . والحق أنى ما كنت أتحرك حركة واحدة من غير أن أعثر بهدية من هدايا عيد الميـلاد ملفوفة فى الورق الرفيع ؛ ولـكن لما أهدتنى معلمتى عصفوراً من عصافير الـكنار فاضت كأس سعادتى .

فـكان ليتل تيم (Little Tim) أنيساً وديعاً ، يثب على إصبعى ثم يقف عليه ، و يأكل من يدى كرزاً مسكراً . وعلمتنى الآنسة صاليفان كيف أُعنى به العناية الواجبة فأعد له حمّامه عقب الفطور ،

وأنظف له قفصه ، وأملأ آنيته بالحب النظيف ، وبالماء الصافى أجلبه من العين ، وأعلق له فى أرجوحته فرعا من العشب الأخضر .

وحدث ذات يوم أنى تركت القفص على النافذة حتى أحضر الماء اللازم لحمام الكنار . فلما رجعت شعرت أن قطة كبيرة مرت بجانبى عند ما فتحت باب القفص . فلم أدرك فى البداية ما حدث ، ولكن عند ما وضعت يدى فى القفص لم تمسنى أجنحة (تيم) ولم تتعلق مخالبه الصغيرة المحددة بأصابعى ، وعندئذ عرفت أنى لن أرى المغنى الصغير بعد ذلك .

الفصل التاسع

مدرسة العميان فى بوسطن

كانت زيارتى لمدينة بوسطن فى مايو سنة ١٨٨٨ أهم حادث فى حياتى . فما زلت أذكر الاستعدادات التى قمنا بها تمهيدا للرحلة ، والسفر مع معلمتى وأمى ، كما أذكر الرحلة نفسها والوصول إلى بوسطن ، كما لو حدثت كلها أمس . فما أعظم الفرق بين هذه الرحلة وبين تلك التى قمنا بها إلى بلتيمور منذ سنتين ! فلم أكن هذه المرة قلقة مستوفزة ، ولم أكن تلك المخلوقة الصغيرة السريعة الانفعال التى تتطلب باستمرار عناية بها من كل راكب فى القطار كى يسليها ويلهيها . فجلست هادئة بجانب الآنسة صاليفان أستوعب باهتمام بالغ كل ما تخبرني به من الأمور التى تشاهدها من نافذة عربة القطار مثل نهر تنسى الرائع ، وحقول القطن المترامية الأطراف ، والتلول ، والغابات ، وجماعات الزنوج الضاحكين المستبشرين وهم فى المحطات يلوّحون بأيديهم تحية لنا نحن ركاب القطار ، ويحضرون إلينا الحلوى

اللذيذة «والفشار» الطيب . هذا، وقد جلستُ على الكرسى أمامى دميتى «نانسى» الكبيرة المصنوعة من القماش، وكانت ترتدى ثوبا جديدا من الشيت المخطط ، وعلى رأسها قبعة مزركشة تقيها حر الشمس، وجعلت ترمقنى بعينيها الخرزيتين . فاذا لم أكن مستغرقة فى الانتباه إلى الأوصاف التى تلقيها على الآنسة صاليفان ، تذكرت نانسى فأتناولها بيدى أحيانا. على أنى كنت أعزّى نفسى عنها عادة بأن أزعم أنها ناعسة .

وإذ لا فرصة لدىّ أشير فيها إلى « نانسى » غير هذه الفرصة فسأقص عليك هنا حادثا مؤسفا جرى لها عقب وصولنا إلى بوسطن . فقد كانت ملوثة من « الفطائر الطينية » التى كنت أجبرها على أن تأكلها على الرغم من أنها لم تستسغها ولم تبد ميلا خاصا إليها . فلما رأتها الغسالة التى فى معهد بركنز أشفقت عليها وأخذتها خفية وغسلتها بعد أن هيأت لها حماما طيبا. ولكن «نانسى» لم تحتمل ذلك كله ، فقد كان أكثر مما تطيق . فلما رأيتها لم أكن لأعرفها لولا عيناها الخرزيتان اللتان نظرتا إلى تعاتباننى على ما حدث لها ، فقد صارت كومة من القطن لا شكل لها ولا رونق .

وأخيرا وقف القطار فى محطة بوسطن ! فكأن قصة من قصص

« الجنيات » قد تحققت لى : « فى سالف العصر والأوان » أصبحت شيئاقائما الآن؛ «والبعيد البعيد » صارهنا وفى هذا المكان .

ما إن وصلتُ إلى معهد بركنز للعميان حتى أخذت أصادق الأطفال الصغار الفاقدى البصر ، وسررت سرورا بالغا يجل عن التعبير لما علمتُ أنهم يعرفون « الألف باء » اليدوية . فأى سرور أعظم من أن أخاطب الأطفال الآخرين بلغتى الخاصة ! لقد كنت حتى هذا الوقت أشبه بأجنبى يتحدث إلى الناس بوساطة ترجمان ، أما فى المدرسة التى تعلمتْ فيها لورا بريدجمن (١) فقد كنت فى بلادى ، بين أهلى وعشيرتى ؛ وقد استغرق منى وقتا غير قصير أن أدرك أن أصدقائى هنا كانوا جميعاً من فاقدى البصر . نعم كنت أعرف أنى لا أرى ، ولكن لم يبد لى أنه من الجائز أن يكون جميع هؤلاء الأطفال المتحمسين المحبين، الذين يتجمعون حولى و يشتركون من صميم قلوبهم فى ألعابى، هم كذلك غير مبصرين ! وأذكر ما شعرت به من دهشة ، ومن ألم ، عندما لحظت أنهم يضعون أيديهم على يدى عندما أتكلم معهم، وأنهم كانوا يقرؤون الكتب بأناملهم . ومع أنهم أخبرونى

---

(١) Laura Bridgman

بذلك من قبل ، وكنت أنا أدرك مدى حرمانى ، فقد ظننت ، مع ذلك بشكل غامض ، أنهم ماداموا يسمعون لابد أن يكون عندهم شىء من بصر ثان ؛ ولم أكن مستعدة لأن أجد طفلا ، وآخر ، وثالثا ، كلهم محرومين مثلى من الهبات الثمينة ، ولكنهم كانوا مع ذلك جميعا سعداء راضين . لقد فقدت كل شعور بالألم فى سرورى بمعاشرتهم ..

فان يوما قضيته مع الأطفال العميان جعلنى أشعر فى بيئتى الجديدة شعور من فى بيته بين أهله وذويه ؛ وصرت أتشوف إلى ألوان جديدة من الخبرة الجديدة السارة تأتى الواحدة بعد الأخرى ، كلما مرت بى الأيام سراعا ، ولم أكن أستطيع أن أقنع نفسى بأنه قد بقى شىء من الدنيا ، فبوسطن بداية الخليقة ، و بوسطن نهايتها .

ولما كنا فى هذه المدينة زرنا بنكرهيل[1] (Bunker Hill) حيث تلقيت أول درس من دروس التاريخ . فقصة الرجال الشجعان

---

(١) بنكر هيل — تل صغير عند بوسطن هذه ، حدثت عنده أول موقعة هامة فى حرب الاستقلال الأمريكى ، فى ١٧ يونية سنة ١٧٧٥ ويحتفل الأمريكيون بذكراها باسم « يوم بنكر هيل » .

الذين قاتلوا فى هذه البقعة ، حيث وقفنا ، استثارتنى أيما استثارة . فتسلقت النصب التذكارى ، وعددت الدرج واحدة واحدة ، وعجبت ، وأنا أصعد إلى أعلى ، فأعلى ، فأعلى ، ثم إلى أعلى ! إن كان الجنود قد طلعوا هذه السلالم العظيمة كذلك ، وصوّبوا منها نيرانهم على العدو أسفلهم !..

وفى اليوم التالى ذهبنا إلى مدينة بليموث[1] بحراً وكانت تلك أول رحلة لى فى البحر ، وأول سفرة قمت بها على ظهر سفينة بخارية . فما كان أحفلها بالحياة والحركة ! ولكن ضوضاء الآلات جعلتنى أتخيل أن السماء ترعد ، فأخذت أصيح ، وخشيت ألا نتمكن من القيام برياضتنا فى الهواء الطلق إن أمطرت السماء . وأظننى اهتممت بالصخرة العظيمة التى ألقى الحجاج[1] عندها مراسيهم ، أكثر مما اهتممت بأى شىء آخر فى بليموث ، لأنى استطعت أن ألمسها ، ولعلّ هذا هو الذى جعل وفود « الحجاج » وما قاسوه من متاعب ، وقاموا به من أعمال مجيدة ، حقيقة قائمة بالإضافة

(١) الحجاج The Pilgrim Fathers هم نحو ١٠٠ شخص غادروا انجلترا من ميناء بليموث سنة ١٦٢٠ على ظهر السفينة (ماى فلاور) واستقروا فى ولاية مساشوستس .

إلى . وكثيرا ما أخذت فى يدى نموذجا صغيرا لصخرة بليموث هذه ، تفضل بإهدائه إلىّ سيد طيب فى بلجرمهول Pilgrim Hall فجعلت ألمس منحنياتها بأناملى ، ومسست الشق الذى فى وسطها ورقم ١٦٢٠ المنقوش فيها نقشا بارزا ، وأدرت فى فكرى كل ما عرفته من قصة الحجاج العجيبة . فما أشد توهج خيالى الطفلى بروعة هذه المغامرة ! فتمثلتهم أكرم رجال وأشجع أبطال نزحوا يسعون وراء إيجاد مسكن لهم فى بلاد غريبة أجنبية عنهم . وخطر ببالى أنهم كانوا يرغبون فى حرية بنى الإنسان جميعا، رغبتهم فى حريتهم هم . ولكنى دهشت كل الدهش، وشعرت بخيبة أمل، عندما سمعت بعد ذلك بعدة سنوات بما ارتكبوه من اضطهاد يجعلنا نذوب خجلا مهما تمجدنا بالشجاعة والهمة اللتين وهبتانا بلادنا الجميلة .

ومن بين الأصدقاء الكثيرين الذين تعرفت بهم فى بوسطن كان المستر وليم إنديكوت وابنته . فإن شفقتهما بى كانت الأصل الذى نشأت عنه ذكريات حسنة كثيرة منذ ذلك الوقت؛ فقد زرنا مرة دارهما الجميلة فى بفرلى فارمز (Beverley Farms) ، وأذكر كيف مضيت أجوس خلال حديقة وردهم ، وكيف أن كلبيهما — ليو

الـكبير وفرتر الصغير ذا الشعر الجعد والأذان الطوال — جاءا ليقابلانى، وكيف أن نمرود أسرع خيلهم عدواً ، دفع بأنفه فى يدى كى أربته وأهديه قطعة من السكر . كذلك أذكر الشاطىء حيث لعبت لأول مرة بالرمال ، وكانت رمالا ناعمة جامدة تختلف عن تلك الرمال المتفككة الحادة المختلطة بالأعشاب البحرية والأصداف فى بروستر (Brewster) ، فحدثنى المستر إنديكوت عن السفن الـكبيرة التى تفد على هذا الميناء من بوسطن قاصدة أوربا ، ورأيت المستر إنديكوت بعد ذلك عدة مرات كان فى كل منها صديقاً لى كعادته . والحق أنى كنت أفـكر فيه عند ما سميت بوسطن مدينة « القلوب الشفيقة »

الفصل العاشر

عجائب البحر المحيط

قبل أن يغلق معهد بركنز أبوابه للعطلة الصيفية نظمنا رحلة للذهاب إلى مدينة بروستر (Brewster) عند رأس كُد (Cod) لنقضى عطلتنا عند صديقتنا العزيزة السيدة هوبكنز (Mrs Hopkins) فابتُهجت بذلك ، وفرحت أيما فرح ، فقد كان عقلى مليئاً بما ينتظرنا من مسرات ومتع ، ومن قصص رائعة كثيراً ما سمعتها عما يجرى فى البحار .

وأوضح ذكرى لدىّ عن ذلك الصيف هى ذكرى المحيط . فقد عشت حياتى إلى هذا الصيف وأنا بعيدة عن البحر ! فلم يحدث من قبل أنى تنسمت نسمة واحدة من هواء البحر الملح . ولكننى قرأت فى كتاب كبير اسمه « دنيانا » (Our Wolrd) وصفا للبحر ملأنى عجباً وشوقاً شديداً لأن ألمس البحر الجميل ، وأحسّ زمجرته واصطخاب

أمواجه . فلا غروأن خفق قلبي الصغير ، وتملكني الطرب الشديد ، عند ما علمت أن رغبتى قد آن لها أن تتحقق .

فما إن عاونونى على ارتداء لباس الاستحمام حتى قفزت إلى الرمال الدافئة ؛ ومن غير أن يساورنى أى خوف ألقيت بنفسى فى الماء البارد ، فشعرت بالأمواج الضخام تصطخب ، ثم تزول ؛ فملأتنى حركة المياه المتموجة فرحا لذيذاً ، ولكن سرعان ما انقلب طربى هذا فزعا ورعبا ، فقد اصطدمت قدمى بصخرة ، وأخذ الماء ينهال على رأسى ، فمددت يدى رجاء أن أقبض على شىء ما أتشبث به وأعتصم ، فما قبضت إلا على الماء ، وعلى العشب الذى ألقت به الأمواج فى وجهى ؛ وضاعت جهودى العنيفة كلها عبثا ، وخيل إلىّ أن الأمواج كانت تلعب معى فتدفعنى موجة إلى أخرى فى هذا النوع من اللعب الجنونى .

لقد كان الأمرمزعجاً رهيباً ، فانزلقت الأرض الطيبة اليابسة من تحت قدمى ، وبدا لى أن كل شىء أصبح بعيدا عن هـذا العنصر الغريب الشامل — الحياة والهـواء والدفء والحب — وأخيرا قذف بى البحر على الشاطىء كأنه ملّ لعبته الجديدة ، فتلقفتنى ساعـدا معلمتى . ألا ! ما أروح ذلك الاحتضان الرفيق الطويل !

ولما استفقت مماتولانى من الفزع واستطعت أن أتكلم، سألت :
ومن الذي وضع الملح فى الماء يا ترى ؟

و بعد أن عوفيت من أول خبرة لى بالماء ، خطر لى أنه يكون شيئا رائعا عظيما لو أننى اقتعدت صخرة ضخمة وأنا مرتدية لباس البحر ! فأشعر بالموجة تتلو الموجة ، فتصطدم بالصخرة ، وترسل رذاذا طويلا يغطيني كلى من رأسى إلى إخمص قدمى . وكنت أشعر بالحصى يحتك بعضه ببعض كلما ألقت الأمواج ثقلها العظيم على الشاطىء الذى كان يبدو لى كأنه قد تأثر وجعل يميد من هجومها العنيف . وخُيل إلىّ أن الهواء أخذ ينبض بنبضاتها ، ثم تتراجع الأمواج كى تجمع قوتها من جديد لقفزة أخرى أشد وأقوى . فأتعلق بالصخرة ، وأعتصم بها ، وأنا متوترة مفتونة كلما أحسست بهجوم البحر المتدافع و بزئيره المريع المدوّى .

وما كنت أملّ البقاء على الشاطىء مهما أطلت المكث فيه . فرائحة هواء البحر الصافى الطليق أشبه شىء بفكرة هادئة مريحة للنفس؛ ولم تكن الأصداف، والحصى، وعشب البحر، وما يعلق به من مخلوقات ضئيلة، قد فقدت مالها من روعة تبهرنى، وما فيها من فتنة تسحرنى . فذات يوم لفتت الآنسة صاليفان انتباهى إلى شىء غريب

اصطادته وهو يتشمس فى الماء الضحل . وكان الشيء « سرطانا » كبيراً شكله شكل حدوة الفرس ، وهوأول شيء من نوعه وقع عليه نظرى . فلمسته، وخطر ببالى انه لغريب منه أن يحمل بيته على ظهره ؛ واعتقدت أنه يصلح للتربية ، فعزمت على أن أستأنسه حتى يصبح حيوانا منزليا عجيبا؛ فأمسكته من ذيله بيدىّ الاثنتين ، وحملته إلى البيت .وقد راق لى هذا العمل العظيم ، وأعجبت به، فقد كان الحيوان ثقيلا جدا ، واستنفد جهدى كله أن أجره مسافة طويلة تقرب من ثمانمائة متر .

ولم أدع الآنسة «صاليفان» تستريح إلا بعد أن وضعت لى هذا السرطان فى حفرة على مقربة من البئر حيث كنت متيقنة من أنه سيظل بمأمن من كل شيء فيها . بيد أنى لما مضيت اليه فى الصباح اذا به قد اختفى من الحفرة، ولم يعرف أحد كيف تسلل منها ولا أين ذهب. فشعرت بشيء من خيبة الأمل مريرة ،ولكنى أدركت تدريجا أنه لم يكن من الرحمة ولا من العقل أن نكره هذا الحيوان المسكين الأعجم على أن يعيش فى غير بيئته الطبيعية التى درج على الحياة فيها . و بعد قليل خطر بفكرى أنه ربما يكون قد عاد إلى البحر، وعندئذ شعرت بشيء من السرور والارتياح .

الفصل الحادى عشر

الحياة فى معسكر

وفى الخريف عدت إلى دارنا فى الجنوب وقلبى عامر بالذكريات السارة . وكلما تذكرت زيارتى هـذه إلى الشمال امتلأتُ عجبا من كثرة ما تجمع حولها من خبرات شتى منوعة ، وخيل الىّ أنها بداية كل شىء ؛ فها هى ذى كنوز عالم جديد جميل أضحت عند قدمى . وكنت أحصل من كل جهة اتجهتُ اليها على سرور يطربنى ، وعلى معلومات تفيدنى ، فكأنى كنت أتقمص الأشياء نفسها وأحيا حياتها ، فلم ألبث ساكنة لحظة واحدة بل كانت حياتى كلها حركة مثل حيوات تلك الحشرات الصغار التى تجمع حياتها كلها وتركزها فى يوم واحد قصير . ثم قابلت كثيرين من الناس تحدثوا معى بالتهجي فى يدى ؛ فكان الفكر ينهض فى تعاطف لذيذ سار ليقابل فكرا آخر مثله . ثم انظر ! هاهى ذى معجزة قد تحققت ! فالنواحى المجدبة التى تفصل عقلى عن عقول غيرى من الناس انقلبت خصيبة ممرعة ،

وازدهرت كما تزدهر الوردة .

قضيت أشهر الخريف مع أهلى فى بيتنا الصيفى على رأس جبل يبعد اثنين وعشرين كيلو متراً من بلدنا « تـكامبيا » يسمى فِرن كوارى (Fern Quarry) ،وسمى كذلك على إسم مقلع أحجارجيرية قديم على مقربة منا ،ولـكنه لم يعد يستغل الآن ؛وكان يمر به ثلاثة نهيرات صغار ، كل منها مرح لعوب تنبع من عيون فى الصخر من عل، فتقفز من هذا الجبـل لتسقط فى شلالات ضاحكة مشرقة كلما حاولت الصخور أن تقطع عليها سبيلها . وكان المدخل مملوءا بأنواع من نبات السرخس غطت طبقات الحجر الجيرى كلها ولم تترك منها شبرا واحدا ظاهرا . وزيادة على ذلك فقد كانت هـــذه النهيرات تختفى فى بعض مواضع من مجاريها ؛ أما سائر الجبل فقد اكتسى غابات كثيفة ، فيها أشجار ضخام من أشجار البلوط ، وشجيرات رائعة دائمة الاخضرار ، سيقانها أشبه ما تكون بالأعمدة المغطاة بالطحالب ، تتدلى من أغصانها أقواس نصر من اللبلاب والدبق والـكاكى يعطر أرُجها كل ركن من أركان الغابة بعطر عجيب يدخل السرور على

القلب . وفى بعض مواضع من الغابة ترى كروم « المسكادين » البرى و « السكوبرنونج Scuppernung » ممتدة بين شجرة وأخرى فتكوّن بينهما خمائل تنتغش بأنواع الفراش والحشرات الطنانة . وكان من دواعى سرورى أن نهيم فى تلك الغابة الكثيفة المشتجرة عند الغروب ، ونضل طريقنا فى فجواتها الخضراء ، ونشم تلك الروائح الهادئة الجميلة تفوح من الأرض آخر النهار .

وكان البيت الذى نسكنه أشبه شىء بمعسكر غير منظم يقع فى بقعة جميلة من الأرض على رأس جبل بين أشجار البلوط والصنوبر ، وكانت حجراته الصغيرة تقوم صفين على جانبى بهو مستطيل واسع . وحول البيت فناء رحيب تهب عليه الرياح الآتية من الجبال حلوة معطرة بأرج الغابات ؛ وكان من عادتنا أن نقضى أكثر وقتنا فى هذا الفناء نتناول وجباتنا ، ونلعب ، ونشتغل فيه . وتقوم عند الباب شجرة ضخمة ، بنيت السلالم حولها . وكانت الأشجار متقاربة بعضها من بعض حتى كنت ألمسها بيدى ، وأحس الريح تهز أغصانها ، وأشعر بالأوراق وهى تتساقط على إثر هبوب الرياح فى الخريف .

وكان يتردد علينا زوار كثيرون فى « فِرن كوارى » ، فكان الرجال يتجمعون مساء حول نار المعسكر يلعبون الورق على ضوء لهبها ، و يقضون وقتهم فى الحديث والسمر وفى الألعاب، وسرد القصص الرائعة عما أتوه من أعمال عجيبة: من صيد السمك ، وقنص الحيوانات الضوارى . فكم من بطة ، وكم من ديك برى من تلك الديكة الرومية اقتنصوه ! وكم « بلطية » متوحشة صادوها ! وكيف كانوا يحتالون على الثعالب الماكرة فيقبضون عليها و يدسونها فى الجواليق ؛ وكيف كانوا يتغلبون على أمهر « أو بوسوم » ؛ و يلحقون بأسرع الظباء عدوا ، حتى خيل الى أن الأسود والنمورة والدببة وسائر الحيوانات الضارية لا تستطيع ثباتا أمام هؤلاء الصيادين المكرة. وكان آخر شىء يقوله أفراد هذه الجماعة قبل أن يتفرقوا للذهاب إلى مخادعهم : « غداً الطراد ! » وكان من عادتهم أن يقضوا ليلهم فى البهو خارج الحجرات ، ينامون عند أبوابها ، حتى كنت أشعر بأنفاس الصيادين العميقة وهم راقدون على فرشهم الملفقة ، كما كنت أشعر بأنفاس كلاب الصيد التى معهم .

وعند الفجر تيقظت على رائحة القهوة ، وقعقعة البنادق ، ووقع

أقدام الصيادين الثقيلة وهم يتحركون و يتباشرون بصيد عظيم ، ولعله أعظم صيد فى الموسم كله. وكنت أشعر بوقع حوافر الخيل التى جاءوا عليها من المدينة ، ثم ربطوها فى الأشجار حيث تظل واقفة الليل كله وهى تصهل صهيلا عاليا ، قليلة الصبر ، تواقة إلى الانطلاق إلى الصيد والطراد .

وأخيرا امتطى الرجال صهوات جيادهم . و بحسب تعبير الأغانى القديمة « جرت الخيل فسمعنا أصوات أَزِمَّتها وفرقعة السياط ، يصيح ورأينا تسابق الكلاب أمامها ، واندفاع أبطال الصيد وهم يتصايحون » .

ولما متع النهار اتخذنا أهبتنا لإقامة حفلة « شِواء » ، فأوقدنا نارا كبيرة فى قاع حفرة عميقة فى الأرض ، ووضعنا عبر قمتها عصيا كثيرة تدلت منها لحوم تدور فى سفافيد ؛ وجلس الزنوج القرفصاء حول النار وقد أمسكوا فى أيديهم بفروع طويلة من فروع الشجر ليطردوا الذباب عن اللحم . وكانت رائحته اللذيذة قد حركت شهيتى قبل أن يتم إعداد السماط بوقت طويل .

ولما بلغت جلبة الاستعدادات وضوضاؤها ذروتها ظهرت أفواج

الصيادين مثنى وثلاث . وكانوا متعبين ينضحون عرقا ، كما كانت الخيل ترمى بأز بادها ؛ وجاءت الكلاب المرهقة تلهث مسترخية الآذان . لأن القوم لم يوفقوا إلى صيد حيوان واحد ؛ وعلى الرغم من ذلك كان كل رجل منهم يقول إنه شاهد على الأقل ظبيا واحدا ، فاقترب منه كل الاقتراب ، وركضت الكلاب وراءه ، تطارده ، ولكن مهما جرت الكلاب ، ومهما أحكم الصيادون تصويب بنادقهم ، فلم يكن عند الضغط على زنادها ثمة ظبي يرى ، فقد كان حظهم مثل حظ ذلك الصبي الذى قال إنه كاد أن يرى أرنبا على حين أنه لم ير سوى أثر أقدامها على الأرض . ومع هذا فسرعان ما نسى القوم فشلهم وما مُنوا به من خيبة الأمل . فجلسنا جميعا لنأكل ، لا لحم ظبي، ولكن لحم عجل أليف وخنزير مشوى .

وذات صباح فى يوم من أيام الصيف أحضروا لى مهرى من «فرن كوارى » ، وكان اسمه « بلاك بيوتى» أى الجمال الأسود . فقد سبق أن قرأت الكتاب الذى بهذا العنوان وكان المهر يشبه سميه هذا من عدة وجوه : من حيث لونه الأسود الصقيل ، والغرة التى فى جبينه ؛ فكنت أقضى على ظهره ساعات أعدها من أسعد أوقات

حياتى . وفى بعض الأحيان ، كانت معلمتى ، عندما تشعر ألاّ خطر على ، تدع زمام المهر وشأنه فيمشى على غير هدى ، أو يقف كلما يحلو له الوقوف ، يرعى العشب أو يقضم أوراق الأشجار القائمة على جانبى الطريق .

وفى الأيام التى لا أكون فيها ميالة إلى الركوب ، أخرج صباحا مع معلمتى بعد تناول الفطور إلى الغابات نقوم برياضة فيها على الأقدام ، فنهيم وسط الأشجار والكروم ، حيث لا طريق نسلكها غير الممرات الضيقة التى تكونت من أثر مرور الأبقار والخيل فيها . وكثيرا ما كنا نصادف أجمات كثيفة ، يستحيل علينا اجتيازها ، فنضطر إلى سلوك طريق أخرى ملتوية ، ثم نعود إلى البيت محملتين بأحمال من الغار والسرخس و بأزهار جميلة من أزهار المناقع التى لا تنمو إلا فى الجنوب .

وقد أذهب أحيانا مع أختى « ميلدريد » و بنات عمى الصغار لنجمع « الكاكى » .

ولم أكن آكل هذه الثمار بل أكتفى برائحتها ، والاستمتاع بالبحث عنها بين الأوراق والأعشاب . وكنا نمضى أحيانا نجمع

البندق والجوز وما إليهما ، وأعاون الجماعة فى فتح ثمار « أبى فروة » ، وفى تكسير قشور البندق والجوز ، ذلك الجوز الحلو الكبير .

وكانت سكة الحديد تمر عند سفح الجبل ، فيتجمع الأطفال ليروا « القطر » وهى تمر بهم سريعة كالريح ؛ وقد يدعونا صوت صفارة مريع إلى الخروج لنقف على الدرج ، فتقول لى أختى « ملدريد » إن بقرة أو فرسا ضلت طريقها وسارت على سكة الحديد . وعلى مسافة كيلومتر ونصف تقوم « قنطرة » عبر خانق بعيد الغور ، من العسير على أى إنسان يمر عليها ، فقضبان القنطرة بعيدة بعضها عن بعض ، وحافاتها ضيقة كل الضيق ، حتى إنك لتشعر وأنت تسير عليها أنك إنما تسير على سكاكين حادة ، ولم يسبق لى أن مررت على هذه القنطرة من قبل ، حتى كنت ذات يوم مع الآنسة « صاليفان » وأختى « ميلدريد » ، فضللنا طريقنا فى الغابات ، وجعلنا نهيم على وجوهنا ساعات طوالا من غير أن نهتدى إلى الطريق .

وفجأة أشارت « ميلدريد » بيدها الصغيرة وصاحت قائلة تلك هى القنطرة المترنحة ! وكنا نفضل سلوك أى طريق آخر على أن نمر على هذه القنطرة ، لولا أن الوقت كان متأخرا وأوشك الليل أن يرخى

سدوله ، وكانت القنطرة أقرب طريق لنا إلى البيت . وكان المرور عليها يقتضيني أن أتحسس قضبانها بإصبع قدمي ؛ ومع هذا كله لم أشعر بشيء من الخوف ، وأخذت أمر عليها بسلام ، و إذا بي أحس بصوت القطار وهو آت من بعيد وهو يقول : بف بف !

وصاحت «ميلدريد» إني أرى القطار آتيا ! ولم تمض لحظة حتى كاد القطار أن يدهمنا ، لولا أننا سارعنا ونزلنا نتسلق القضبان المعترضة التي تحمل القنطرة وظللنا نتسلق إلى أن مر القطار من فوقنا بسلام ، وكنت أشعر ببخار القطار الحار يمر على وجهي .

وكاد الرماد والدخان يخمدان أنفاسنا ويخنقاننا . وفي أثناء مرور القطار جعلت القنطرة تهتز وتتأرجح حتى خيل إلينا أنا سنتردى في الهوة التي تحتنا ؛ و بعد مشقة بالغة عدنا إلى الطريق و بلغنا الدار فوجدناها خالية من كل إنسان . فقد خرجوا جميعا للبحث عنا .

الفصل الثانى عشر

عاصفة ثلجية

بعد زيارتى الأولى لمدينة بوسطن ، صرت أقضى كل شتاء فى الشمال . فذهبت مرة لزيارة قرية فى نيوانجلند[1] New England لأرى ما فيها من بحيرات تجمد ماؤها ، وحقول ثلج ترامت أطرافها . وعندئذ أتيحت لى فرص عدة لأستمتع بمباهج الثلج ، وهى فرص لم تتح لى واحدة منها من قبل

ولا أنسى دهشتى عندما تكشف لى أن يدا خفية قد جردت الأغصان والشجيرات مما عليها من أوراق ، ولم تدع لها سوى ورقات متصوحات ، واحدة هنا وواحدة هناك ، وولت عنها الأطيار ، وامتلأت أعشاشها بالثلج ، وخيم الشتاء على الوهاد والنجاد ، وبدت

---

١ — إقليم فى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة يتكون من ست ولايات ، من بينها ولاية مساشوستس التى أشير اليها مرات فى الكتاب .

الأرض مقرورة ، كأن يد الشتاء الباردة قد قرستها . فخيل إلىّ أن أرواح الأشجار ذاتها قد غادرتها إلى جذورها ، حيث تلفعت بالظلام ، واستغرقت فى نوم عميق ؛ وبدت الحياة وكأنها قد انجزرت . وحتى عندما تسطع الشمس متخاذلة « يكون النهار باردا متقلصا ، كأن الشمس قد هرمت ولم تعد فيها حياة ، فنهضت متثاقلة لتلقى على الأرض والبحر نظرة أخيرة » ، وتحول العشب المتصوح والشجيرات الذابلة إلى غابة من دوالى الجليد .

ثم جاء يوم أنذرنا فيه الهواء المقرور بعاصفة من الثلج ، فخرجنا من الدار لنشعر ببواكير نُدفه المتساقطة ؛ قد ظلت تتساقط على الأرض الساعة بعد الساعة فى صمت وهدوء من عنان السماء ، حتى أضحت البلاد كلها سهولا مستوية ، وأطبق على العالم ليل بارد . وفى الصباح لم يكد الإنسان يتبين أى مَعلم من معالم الأرض التى كان يعهدها ، ولا أى منظر من مناظرها التى يألفها ، فقد اختفت الطرق جميعا ، ولم يعد معلم واحد منها يرى : لم يكن ثمة غير صحراء شاسعة من الثلج ، والأشجار بارزة من خلاله .

وفى المساء هبت ريح شمالية شرقية ، واندفعت ندف الثلج هنا

وهناك فى فوضى وجنون . وتجمعنا نحن حول الموقد الكبير ، والنار مشتعلة فيه ، نقص قصصا مرحة ، ونلعب ونعبث ، حتى نسينا أننا فى وسط عزلة كئيبة ، بعيدين كل البعد عن أى اتصال بالعالم الخارجى . ولكن قوة الريح ازدادت فى أثناء الليل ، وملأتنا رعبا وفزعا غامضا ، فجعلنا نرجف ونرتعد ؛ وتوترت جوائز السقف وصوتت ، واضطربت فروع الأشجار المحيطة بالدار ، وجعلت تضرب النوافذ كلما ثارت الريح وهبت على الأرض هوجاء نكباء .

وفى اليوم الثالث من هبوب العاصفة ، وقف سقوط الثلج ، ونفذت أشعة الشمس من خلال السحاب ، وتلألأت على سهل فسيح متماوج أبيض ؛ فكنت ترى أكواما عالية من الثلج ، وأهراما ذات أشكال شتى غريبة ، وأكداسا مكدسة يصعب اختراقها ، مبعثرة فى كل رجى من الأرجاء . ونشط الناس وشقوا لهم طرقا ضيقة وسط هذه الثلوج ، بأن أزاحوا بعضها بمجارفهم ؛ ثم لبستُ قلنسوتى وارتديت معطفى ، وخرجت مع من خرجوا . وكان الهواء يلسع وجنتى كاللهب ، وجعلنا نمشى نجر أرجلنا مرة ، ونشق طريقنا وسط أكداس الثلوج المتراكمة مرة أخرى ، حتى

استطعنا أن نصل إلى غابة من الصنوبر ، عند مرج فسيح مترامى الأطراف . وكانت أشجار الغابة قد اكتست حلة بيضاء ، ومثلت ساكنة لاحراك فيها ، كأنها أشكال مرسومة على حائط من رخام . ولم تكن ثم رائحة للأبريات الصنوبرية ؛ ثم بعد قليل وقعت أشعة الشمس على الشجر ، ولمعت الأغصان وتألقت كما يتألق الماس ، على أنا إذا ما لمسناها تساقطت شآبيب شآبيب . لقد كان الضوء باهراً شديداً حقا ، حتى نفذ إلى ذلك الظلام نفسه الذى يحجب بصرى .

وعلى مر الأيام تقاصت أكوام الثلج وتضاءلت شيئا فشيئا ، ولكن قبل أن تزول تماما هبت عاصفة أخرى ، حتى لم أعد أستطيع أن ألمس الأرض بقدمى مرة واحدة طوال فصل الشتاء كله ، وإن كان ثمة فترات يتراح فيها الغطاء الثلجى عن الأشجار العالية ، وتصبح الشجيرات القصيرة والأعشاب التى تنمو عند سيقان الأشجار الكبرى عارية كلها . وكانت تسليتنا الوحيدة المحببة إلينا فى أثناء الشتاء أن نتزحلق على الثلج . فشواطىء البحيرة ترتفع فى بعض النواحى ارتفاعا وعرا سريعا عن حافة الماء ، فكنا نسارع إلى هذه النواحى ونتزحلق منها على منحدراتها الوعرة بأن نقف على خشبة التزحلق

المعروفة « بالطو بوجن » وندعو إلينا صبيا نكلفه أن يدفعنا بقوة ، وإذا بنا نمرق سراعا منغمرين وسط الثلوج ، نقفز من على الحفرات ، مندفعين نحو البحيرة ، ثم نجرى على سطحها الصقيل المتلألق حتى نبلغ العدوة الأخرى . فياله من سرور ممتع ! و ياله من جنون مطرب كل الطرب !

الفصل الثالث عشر

كيف تعلمت أن أتكلم

بدأت أتعلم الكلام فى ربيع سنة ١٨٩٠ ؛ فقد كانت النزعة إلى النطق بألفاظ مسموعة قوية عارمة فى نفسى ؛ وكنت أصدر أصواتاً وأضع إحدى يدىّ على حلقى ، وأحس بالأخرى حركات شفتىّ ؛ وكنت أسر من كل شىء يحدث أصواتاً وضوضاء ؛ ويعجبنى أن أشعر بالقطة وهى « تقرأ » وبالكلب وهو ينبح ! وأن أضع يدى على حلق مغنية ، أو على معزف فى أثناء ما يعزف عليه أحد .

وقبل أن أفقد بصرى وسمعى كنت بسبيل أن أتعلم الكلام بسرعة ، أما بعد مرضى فقد توقفت عن الكلام . إذ أنى لم أعد أسمع . وكان من عادتى أن أجلس فى حجر أمى طول النهار ، أضع يدى على وجهها ، فقد كنت أشعر بالسرور كلما وضعت يدى على شفتيها ؛ حركت شفتىّ مثلها ، وإن كنت قد نسيت معنى أن يتكلم الانسان . ويقول لى أصدقائى إنى كنت أضحك وأصيح بفطرتى ، وقد مرت

بى فترة كنت أصدر فيها أصواتا كثيرة ، وأنطق ببعض مقاطع من الـكلمات ، لا من حيث هى وسائل للتفاهم مع الناس والاتصال بهم ، ولـكن لأن شعورى بالحاجة إلى تدريب أعضائى الصوتية كان قوياً ، وحاجتى إليه ماسة كل المساس . ومع ذلك فثمة كلمة واحدة ما زلت أذكر معناها واضحاً ، وهى كلمة «ماء» (Water) ، وكنت أنطق بها «واء» «واه» . على أن هذه صارت، هى الأخرى، بعد قليل غير مفهومة ، إلى أن جاءت الآنسة «صاليفان» وأخذت تعلمنى.

وكنت أعرف منذ زمن طويل أن لدى الناس الذين حولى طريقة ، يتفاهمون بها ويتصلون بعضهم مع بعض ، تخالف الطريقة التى أتبعها ، وحتى قبل أن عرفت أن فى مقدور الطفل الأصم أن يتعلم الـكلام ، كنت شاعرة بعدم رضاى عما لدىّ من وسائل الاتصال بالناس والتفـاهم معهم . فمن كان كل اعتماده على « الألف باء » اليـدوية يحس دائماً بالضيق والتقييـد المفروضين عليه ، وهو إحساس أخذ يستثير فىّ شعوراً محنقاً دفّاعا بنقص يجب تلافيه ، وحاجة يجب أن تسد ؛ وكثيراً ما كانت تثور أفـكارى وتظل تخفق وتضطرب فى عقلى كما تفعل الطير أمام الريح ! ولـكنى تشبثت

باستعمال شفتيّ وصوتي ، على الرغم من أن أصدقائي حاولوا أن يثنوني عن عزمي هذا خشية أن يؤدي بي إلى الشعور بالخيبة والفشل ، مما يكون له أثر سيء في نفسي . فثابرت واستمسكت بما عقدت عليه عزمي — إلى أنه حدث ما أدى إلى التغلب على هذا الحاجز العظيم — فقد سمعت قصة رانهلت كاتا (Ragnhild Kaatà)

كانت السيدة لامسون (Mrs. Lamson) إحدى المدرسات اللاتي قمن بتعليم نورا بردجمن في زيارة لبلاد النرويج والسويد سنة ١٨٩٠ ، ولما عادت زارتني وحدثتني عن « رانهلت كاتا » ؛ وهي فتاة نرويجية صماء عمياء تعلمت أن تتكلم فعلا على الرغم من حرمانها . ولم تكد السيدة لامسون تنتهي من إخباري عن نجاح هذه الفتاة في التعلم حتى توقدت شوقا ، وعزمت على أن أتعلم الكلام أنا أيضاً ، ولم أسترح إلا عند ما أخذتني مدرستي لاستشارة الآنسة ساره فولر (Sarah Fuller) مديرة مدرسة هوراس مان وللاستئناس برأيها . فعنيت بي هذه الآنسة الرقيقة الدمثة الأخلاق ورضيت أن تقوم هي نفسها بشئون تعليمي الكلام ، و بدأنا دروسنا من ٢٦ مارس سنة ١٨٩٠ .

وقد سارت الآنسة «فولر» معى على الطريقة الآتية : كانت تمرر يدى فى رفق ولين على وجهها ، وتجعلنى أشعر بموقع لسانها وشفتيها، وهى تلفظ صوتا ما ؛ و إذ كنت متلهفة كل التلهف على محاكاة كل حركة من حركاتها ، فقد حفظت فى ساعة واحدة ستة حروف هى : « م، ب ، ا ، س ، ت ، ى » . ولم تزد الدروس التى تلقيتها على يدى الآنسة « فولر » على أحد عشر درساً . ولست أنسى ماشعرت به من دهشة وغبطة عندما نطقتُ أول جملة موصولة؛ وكانت : «الجو حار» « It is warm. » . نعم إنها كانت مقاطع مبعثرة ، غير منتظمة ، ولكنها كانت كلاما إنسانيا .

ولما شعرتْ نفسى بقوة جديدة ، انطلقتْ من عقالها ، وأخذتْ تتوصل بوساطة هذه الرموز الكلامية القلقة ، إلى كل معرفة ، وإلى كل إيمان واعتقاد .

ليس فى استطاعة طفل أصم ، حاول جهده أن يتعلم نطق الألفاظ التى لم تطرق أذنيه قط ، — وأن يخرج من محبس الصمت والسكون الذى لم تنفذ اليه نغمة واحدة من نغمات الحب ، ولا تغريدة طير ، ولا رنة من رنات الموسيقى — ليس فى استطاعة هذا الطفل أن ينسى أبداً نشوة الدهشة ، وفرحة الاستكشاف اللتين

شعر بهما عندما نطق أول كلمة له . فليس غير هذا الطفل يستطيع أن يقدر ذلك التلهف الذى جعلت أخاطب به لعبى ، وأوجه الكلام إلى الأحجار ، والأشجار ، والطيور ، وسائر العجماوات ؛ ولا ذلك السرور الذى أستشعره عندما تهرع إلى أختى «ميلدريد» كلما دعوتها . أو عندما تطيع كلابى أوامرى التى آمرها بها ؟ إنها لنعمة لا يتسنى لى التعبير عنها : أن أستطيع الكلام بعبارات وألفاظ مجنحة لا تحتاج إلى مترجم يترجمها للناس . فعندما أتكلم ، تنطلق من كلماتى أفكار سعيدة ؛ ربما لم يكن فى طاقتها أبدا أن تفلت من أصابعى مهما جدت وجاهدت ..

ولكن لا يتوهمن أحد أنى أصبحت بذلك أستطيع أن أتكلم فعلا فى مثل هذا الوقت القصير ؛ فلم أتعلم فى الواقع سوى مبادىء الكلام ، ولم يكن يستطيع أن يفهمنى سوى الآنستين « صاليفان » و « فولر » ؛ أما غالبية الناس فلم يفهموا منى كلمة واحدة من كل مائة كلمة أقولها . هذا ، وليس صحيحاً أنى بعد أن تعلمت هذه المبادىء اضطلعت وحدى بباقى العمل على تعلم الكلام ، فلولا عبقرية الآنسة «صاليفان» ومثابرتها التى لا يعتريها وهن ولا كلال ، ولولا إخلاصها الذى لا حد له ، لما تقدمت ما تقدمت فى سبيل النطق بالكلام الطبيعى .

فأولا كنت أعمل ليل نهار قبل أن يستطيع أن يفهمني حتى ألصق أصدقائي بي وأقربهم إليّ ؛ وثانياً كنت بحاجة دائمة إلى معاونة الآنسة «صاليفان» لي في جهودي في نطق كل صوت نطقا واضحاً ، وفي تأليف الأصوات المختلفة بآلاف من الطرق ؛ وأنها مازالت حتى اليوم توجه انتباهي إلى ما أخطىء في نطقه من الألفاظ .

يعلم جميع معلمي الصم معنى هذا كله ، فهم دون غيرهم الذين يستطيعون أن يَقْدِروا الصعاب الخاصة ، والعقبات الكثيرة التي كان عليّ أن أواجهها وأكافحها ؛ ففي قراءتي شفتيْ معلمتي كنت أعوّل كل التعويل على أصابعي ، فكان علي أن أعتمد عليّ حاسة اللمس وحدها في تصيد الذبذبات التي تصدر من الحلق وحركات الفم وتعبيرات الوجه ؛ وكثيراً ما تكون حاسة اللمس هذه على خطأ . ففي مثل هذه الأحوال كنت مضطرة إلى أن أظل أكرر في بعض الأحيان الألفاظ أو العبارات عدة ساعات متوالية ، حتى أحس جرسها الصحيح في صوتي . فكان عملي أن أتمرن ، وأتمرن ، وأتمرن . وكثيراً ما عراني الملل ، وانتابني ثبوط الهمة ، وفتّ في عضدي ، ولكن لم تمض لحظة واحدة حتى كانت فكرة أني سأكون قريباً بين أهلي ، أعرض على

عزائى وأحبابى ما حصلتُ عليه وأنجزته من العمل فى هذه السبيل ، تحثنى وتحدونى على الاستمرار فى التمرن ، وصرت أتطلع بكل شوق وتلهف إلى ما سأشعر به من سرورهم بما أنجزت ، وفرحهم بما كسبت .

وقد كانت فكرة أن « أختى الصغيرة ستفهمنى الآن » أقوى من كل عقبة تقوم فى سبيلى ، فجعلت أكرر فى مرح وخفة طرب ، أنى « لم أعد بكماء الآن » ، وما كان لى أن أكون حزينة مكتئبة وأنا أتوقع السرور الناشىء عن تحدثى إلى أمى ، وقراءتى ما تجيبنى به من شفتيها . فقد أدهشنى أن أجد الكلام أسهل جدا من التهجى بأصابع اليد ، فاطرحتُ « الألف باء » اليدوية من حيث هى واسطة اتصالى بالناس والتفاهم . ولكن الآنسة « صاليفان » وجماعة من أصدقائى مازالوا يستعملونها فى مخاطبتى ، إذ أنها أنسب بى وأسرع من قراءة الشفاه .

ولعل هذا المكان أنسب موضع لأشرح طريقة استعمالنا « للألف باء » اليدوية . فإنه أمر يبدو محيراً لكثيرين من الناس الذين لا علم لهم بنا . فمن يريد أن يقرأ لى ، أو يتحدث إلىّ ، عليه أن يتهجى بيده ، مستعملا « الألف باء » اليدوية (ذات اليد الواحدة) التى يستخدمها الصم عادة . فأضع يدى على يد المتكلم فى رفق عظيم حتى لا أعوق حركاتها . فمن السهل الهيّن على أن أشعر بموضع اليد بقدر ما يسهل

عليك أنت أن ترى ، فإنا لا نشعر بكل حرف من الحروف على حدة ، أكثر مما لا ترى أنت كل حرف من الحروف على حدة عندما تقرأ . فدوام التمرين يجعل الأنامل مرنة كل المرونة . هذا ، وإن بعض أصحابى ليستطيعون أن يتهجوا بسرعة كبيرة تعادل السرعة التى يكتب بها مهرة الكتبة على الآلة الكاتبة ، والتهجى يصبح بعد التعود عملا غير مشعور به ، كما تصبح الكتابة بعد تعلمها عملا لا شعوريا .

أما وقد تملكت ناحية الكلام لم يعد بى قدرة على الصبر حتى أعود إلى بيتى وأهلى . فأخيرا سنحت لى أسعد اللحظات السعيدة كلها ، فوليت خطوى نحو السفر إلى بلادى ، وكنت طول الطريق أتكلم باستمرار مع الآنسة «صاليفان» ، لا حبا فى الكلام وحده ولكن اعتزاما منى على أن أظل أتحسن وأتقدم فى كلامى فى كل لحظة حتى اللحظة الأخيرة . ووقف القطار عند محطة تسكامبيا ، ولم أكد أدرك أنه قد وصل إليها فعلا . وهنا ، على إفريز المحطة ، وجدت أفراد الأسرة كلهم فى انتظارنا ، وإن عينى لتغرورقان بالدموع الآن كلما أذكر كيف عانقتنى أمى وضمتنى إلى صدرها ، وهى صامتة فرحة كل الفرح ، ومصغية كل الإصغاء إلى كل مقطع أتلفظ به ، على حين تناولت أختى

«ميلدريد» الصغيرة يدى الطليقة وقبلتها ، وجعلت ترقص وتمرح .

أما أبى فقد أبدى اعتزازه بى ومحبته لى فى شكل صمت عظيم ، فكأن نبوءة إشَعيا(1) قد تحققت .

---

(١) إشعيا بن آموص نبى من أنبياء بنى إسرائيل عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن فى أورشليم . وتؤرخ بعثته عادة بسنة ٧٤٠ قبل الميلاد .

الفصل الرابع عشر

« ملك الصقيع »

كانت سماء طفولتى صحوا كلها إلاّ من سحابة واحدة عكرت عليها صفوها شتاء عام ١٨٩٢ ، فغادر السرور فؤادى ، وقضيت وقتا طويلا ينتابنى الشك ويساورنى القلق والخوف ، وزال عن الكتب ما لها من روعة وفتنة . وكلما خطرت هذه الفكرة الرهيبة ببالى انقبضت لها نفسى ونبا بى مضجعى .

ومردّ ذلك كله أنى كتبت قصة صغيرة أسميتها «ملك الصقيع» (The Frost King)و بعثت بها إلى المستر أنجانوس (Anganos) مدير معهد بركنز للعميان . وكى أبين هذه المسألة بجلاء لا بد لى من عرض جميع الحقائق المتصلة بها ؛ ذلك إلى أن إنصافى لمعلمتى ولنفسى يضطراننى إلى سردها .

كتبت تلك القصة وأنا فى البلد، وذلك فى أول خريف بعد أن

تعلمت النطق والكلام، وكناقدقضينافى فرن كوارى (Fern Quarry) وقتا أطول مما اعتدنا أن نقضيه فيها . و بينما نحن هناك وصفت الآنسة « صاليفان » جمال أوراق الشجر فى أواخر الخريف ، فحرك وصفها هذا فى نفسى ذكريات قصة لابد أن أحدا قرأها لى من زمن ، فاستقرت فى ذهنى على غير وعى منى ، ولذا تصورت وأنا أكتبها أنى إنما أؤلف قصة ، كما يقول الأطفال ، فسارعت إلى تدوينها قبل أن تفلت الفكرة منى . وجرت أفكارى فى يسر وسهولة ، وشعرتُ وأنا أنشيها ، بسرور عظيم وكانت الصور والأفكار تنسال متلاحقة على أناملى ، وكلما فكرت فى جملة وتدبرتها كتبتها على لوحى « الأردوازى » الخاص . و إذ كانت الصور والألفاظ تتوالى علىّ فى غير جهد ، أو مشقة فلابد أن يكون ذلك دليلا مؤكدا على أنها ليست من بنات أفكارى ، و إنما هى ضالة شاردة يجب أن أطردها غير آسفة عليها . وكنت فى ذلك الوقت ألتهم كل ما أقرأ التهاما شديدا ، من غير أن تخطر ببالى أية فكرة عن التأليف والكتابة ؛ وما زلت إلى الآن غير واثقة تمام الوثوق من الحد الذى يفصل بين آرائى والآراء التى أصادفها فى الكتب ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الكثير من انطباعاتى لا يصلنى إلاّ عن طريق عيون غير عيونى ، وآذان غير آذانى .

ولما فرغت من كتابة القصة قرأتها لمعلمتى . وما زلت أذكر إلى الآن بكل وضوح ما كان يخامرنى من السرور عند قراءة أروع أجزائها الجميلة ، كما كنت أذكر ما كنت أشعر به من ضيق عندما يقاطعنى أحد ليصلح لى نطق كلمة أخطأت فيها . وفى أثناء الغداء عدت وقرأت القصة كلها على أفراد الأسرة مجتمعين ، واذا بأحدهم يسألنى إن كنت قد قرأتها فى كتاب من قبل .

فأدهشنى هذا السؤال كل الدهشة ، لأنى لا أذكر مطلقا أن أحدا قرأها لى . فلا بدع أن رفعت صوتى وقلت له : لا ! لا ! هى قصتى ، كتبتها للمستر « أنجانوس » .

وعلى هذا طرّست القصة . و بعثت بها إليه هدية منى بمناسبة عيد ميلاده ؛ فاقترح على أن أغير اسمها من «أوراق الخريف» إلى « ملك الصقيع » ،ففعلت ، وحملت القصة إلى إدارة البريد بنفسى، وأنا شاعرة كأنى أسير على الهواء ، ولم يدر بخلدى قط أنى سأدفع ثمنا قاسيا لهدية عيد الميلاد هذه !

وقد اغتبط المستر « أنجانوس » بقصة « ملك الصقيع » كل الاغتباط ، حتى إنه نشرها فى تقرير له عن معهد بركنز ، وعندئذ

بلغت سعادتى ذروتها ، وهى ذروة لم ألبث أن هويت منها إلى الأرض محطمة ! فلم يمض علىّ فى بوسطن غير وقت قصير حتى كشفت أن قصة تشبه قصة « ملك الصقيع » اسمها « جنيات الصقيع » كانت الآنسة مارجريت كانبى (Margaret T. Canby) وضعتها قبل أن أخلق أنا فى هذه الدنيا ، ونشرتها فى كتاب اسمه « بيردى وأصدقاؤه » (Birdie and His Friends) وكانت القصتان متشابهتين كل التشابه ، لايسع الواحد معه الا أن يظن أن قصة الآنسة « كانبى » لابد أن تكون قد قرئت لى من قبل ، وأن قصتى مسروقة ! وكان من العسير عليهم أن يجعلونى أفهم هذا ، ولكن لما فهمته تولتنى الدهشة ، واستولى علىّ الحزن والأسى . فلم يكرع طفل من كأس المر بقدر ما كرعت منها أنا . لقد فضحت نفسى وأنزلت الريبة على الذين أحبهم أكثر من سواهم ؛ ومع ذلك فكيف حدث هذا ياترى ؟ جعلت أعتصر مخى اعتصاراً حتى تعبت من تذكر أى شىء عن « الصقيع » أكون قد قرأته من قبل أن أكتب قصتى « ملك الصقيع » هذه ، فلم أستطع أن أتذكر شيئا غير الإشارات العادية إلى « جاك فروست » (Jack Frost) وقصيدة الأطفال عنوانها

(The Freaks of the Frost) وأنا واثقة من أنى لم أرجع إلى هذه القصة وأنا أكتب قصتى .

ويبدو أن المستر «أنجانوس» قد صدقنى أول الأمر ، على الرغم مما لحقه من الهم . فقد كان معى رفيقاً ، وبى شفيقا ، إلى حد غير مألوف ؛ وبذلك زال عنى كابوس هـذه المسألة فترة قصيرة . وكى أسره وأرضيه حاولت ألا أبدو كئيبة غير سعيدة ، بل اجتهدت أن أجعل نفسى جميلة بقدر ما أستطيع فى الاحتفال بعيد ميلاد «واشنجطن» الذى حل ميعاده عقب الوقت الذى عرفت فيه ذلك النبأ المحزن .

وكان علىّ أن أمثّل فى هذا الاحتفال دور «سيريز»[1] (Ceres) فى رواية قام بتمثيلها البنات الـكفيفات الأبصار ، وإنى لأذكر جيد الذكر الأردية الرشيقة التى اشتملت بها ؛ وأوراق الخريف اللامعة التى توجتُ بها رأسى ، والفواكه والحبوب التى عند قدمىّ وملء يدىّ . ومع ذلك فقد كان وراء الفرح الذى أحدثته هذه الحفلة

«١» سيريز : هى إلاهة الأرض والزراعة عند الرومان ، وتعادل الإلاهة ديمتر Demeter عند الإغريق

يجثم الإحساس المرهق بشر داهم ؛ مما جعل قلبي حزينا مكروبا .

ففي الليلة التي قبل الحفلة سألتني إحدى مدرسات المعهد سؤالا يتصل بمسألة « ملك الصقيع » ، فأخبرتها أن الآنسة « صاليفان » سبق أن تحدثت إليّ عن « جاك فرست » وأعماله الرائعة ؛ ولعلي قلت لها شيئا جعلها تظن أنها وجدت في كلامي اعترافا بأني أتذكر قصة الآنسة « كانبي » عن « جنيات الصقيع » ؛ فسارعت إلى المستر « أنجانوس » ، ورفعتْ اليه ما استنتجته من قولي هذا ، على الرغم من أني أخبرتها بما لا يترك في نفسها أي شك أنها على خطأ عظيم في استنتاجها هذا .

وكان المستر « أنجانوس » يحبني حباً رفيقاً فلما ظن أني ؛ خدعته أصم آذانه عن سماع صوت المحبة ومطالب البراءة ، فقد اعتقد ، أو على الأقل ظن ، أنني والآنسة « صاليفان » قد سرقنا عمداً أفكار غيرنا النيرة ، وخدعناه بها كي ننال إعجابه بنا . فدعوني أمام مجلس تحقيق يتألف من أساتذة وضباط من المعهد ، وكلفوا الآنسة « صاليفان » أن تغادرني وتتركني وحدي . ثم أخذوا يسألونني ، ويعيدون على ما سألوا ، كأن عندهم نية إكراهي على أن أقول إني أتذكر أن قصة « جنيات الصقيع » قد قرئت لي من قبل . وكنت أحس في كل سؤال يوجهونه إليّ

بالريبة التى كانت مخيمة على عقولهم ، وشعرتُ بأن صديقاً حبيباً ينظر إلىّ شزراً كأنه يلومنى و يعاتبنى ، و إن لم يكن فى استطاعتى أن أعبر عن هذا كله بالألفاظ . فضغطَ الدم على قلبى المضطرب ، وتكاثر عليه ، فلم أكد أستطيع الكلام إلا بألفاظ من ذوات المقطع الواحد . ولم يكن شعورى بأن الأمرليس سوى غلطة مريعة ليخفف من آلامى وأحزانى، وأخيراً سمحوا لى بمغادرة الحجرة ، بعد أن بلغ منى الدهش كل مبلغ ، فلم أشعر بمواساة معلمتى إياى ، ولا بالعبارات الرقيقة التى وجهها إلىّ أصدقائى الذين قالوا بأنى كنت فتاة صغيرة شجاعة حقا ، وأنهم يفخرون بى و يعتزون أيما اعتزاز .

و بينما أنا فى فراشى تلك الليلة، بكيت بكاء أرجو ألاّ يكون قد بكى مثله غير عدد قليل من الأطفال ؛ ثم شعرت ببرد شديد ، وتصورت أنى سأقضى قبل طلوع النهار ، ووجدت فى تصوّرى هذا راحة وسلوانا : فلو أن مثل هذا الحزن قد استولى علىّ وأنا فى سن أكبر مما أنا فيه لهدّ كيانى، وصدعنى صدعا لا يرأب ، ولكن ملاك النسيان قد رفع الكثير من بؤسى ، وأزال عنى كل ما فى تلك الأيام من مرارة .

لم تسمع الآنسة «صاليفان» قط بشيء عن قصة «جنيات الصقيع» ولا عن الكتاب الذى نشرت فيه ، ولكنها استطاعت أن تفحص عن المسألة بكل عناية ودقة بمساعدة الدكتور «ألكسندر جراهم بل» ، فتبين لها نهاية الأمر أنه كان عند السيدة صوفيا هوبكنز (Sophia P. Hopkins) نسخة من كتاب الآنسة «كانبى» هذا الذى عنوانه «بِرْدى وأصدقاؤه» وكانت سنة ١٨٨٨ هى السنة التى قضينا الصيف فيها فى بروستر . ومع أن السيدة هوبكنز لم تستطع أن تعثر بالنسخة التى كانت عندها ، فقد أخبرتنى أن الآنسة «صاليفان» كانت فى ذلك الوقت غائبة فى إجازة ، وحاولتْ هى أن تُسليني ، فجعلت تقرأ لى من كتب عدة . ومع أنها لم تتذكر أنها قرأت لى قصة «جنيات الصقيع» ، أكثر مما أتذكر أنا ، فإنى شعرت أن «بردى وأصدقاؤه» كان من الكتب التى قرأتها لى . أما سبب اختفاء الكتاب ، فقالت عنه إنها باعت بيتها وتخلصت من كثير من كتب الأطفال والكتب المدرسية وكتب الجنيات ؛ ولعل كتاب «بردى وأصدقاؤه» كان واحدا من بين الكتب التى تخلصت منها .

ولم يكن لتلك القصص أى معنى لى فى ذلك الوقت ، على أن

مجرد تهجى الـكلمات الغريبة كان كافيا لتسلية طفلة صغيرة لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً لتسلّى نفسها . ومع أنى لا أتذكر شيئا واحداً يتصل بقراءة هـذه القصص ، فلم يسعنى الا ّ أن أقول أنى بذلت جهدا كبيرا فى أن أتذكر ألفاظها ، قصد أن أطلب من معلمتى أن تشرحها لى بعد عودتها من إجازتها . وثم شىء واحد ، مؤكد كل التأكيد ؛ فقد رسخت اللغة فى ذهنى رسوخا لا يمحى ، وان كان قد مضى زمن طويل قبل أن عرف ذلك إنسان ما ، بل قبل أن عرفته أنا نفسى .

ولما عادت الآنسة «صاليفان» من إجازتها لم أتحدث اليها فى أمر «جنيات الصقيع» ولعل ذلك لأنها شرعت فى أن تقرأ لى فى الحال قصة اللورد «فنتليروى الصغير» التى ملـكت علىّ عقلى ، وأبعدتنى عن كل شىء آخر . ومع ذلك فالحقيقة أن قصة الآنسة « كانبى » كانت قد قرئت علىّ مرة ؛ و بعد أن نسيتها بزمن طويل عادت الى ذاكرتى بشكل طبيعى لم أشك معه فى أنها من بنات أفكارى .

و بينما أنا أعانى متاعبى ، وصلتنى رسائل كثيرة تفيض حبا وعطفا من جميع أصدقائى الذين أحبهم ؛ ما عدا واحدا . فقد ظلوا أصدقاء لى

حتى الوقت الحاضر؛ بل ان الآنسة « كانبى » نفسها كتبت الى خطابا رقيقاً تقول فيه : « سيأتى عليك يوم تكتبين فيه قصة عظيمة من قلمك وبنات أفكارك ، وسوف تكون هذه القصة راحة لك وعونا لكثيرين من الناس » . ولكن هذه النبوءة الرقيقة لم تتحقق بعد ؛ ولم أحاول منذ ذلك الوقت أن ألعب بالألفاظ حبا فى السرور الناجم من هذا اللعب . والحق أنى ظللت أقاسى العذاب والألم من خوف أن يكون ما أكتبه ليس من بنات أفكارى ؛ فبقيت زمنا طويلا يتولانى شعور بالفزع كلما هممت بتحرير خطاب لأحد ، حتى لو كان ذلك الخطاب موجها إلى والدتى نفسها . فكنت أتهجى كل جملة عدة مرات لأستوثق من أنى لم أقرأها من قبل فى كتاب . ولولا تشجيع الآنسة « صاليفان » المستمر لتركت كل محاولة لمعاودة الكتابة .

قرأتُ ، بعد ذلك قصة « جنيات الصقيع » كما قرأت الخطاب الذى كتبته واستعملت فيه ألفاظا ومعانى اقتبستها من الآنسة « كانبى » فوجدت فى خطاب موجه إلى المستر « أنجانوس » تاريخه ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٩١، ألفاظا وعواطف تطابق تمام المطابقة ما جاء فى الكتاب . وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه « ملك الصقيع »

وأحرر فيه هذا الخطاب ، وكان مثل خطابات كثيرة غيره يحتوى على عبارات تدل على أن عقلى كان وقتئذ متشبعا بالقصة، وذكرت فيه معلمتى وهى تقول لى عن أوراق الخريف الذهبية اللون : « نعم إنها الجميلة حقا جمالا يعزينا عن مرور الصيف السريع » وهى فكرة مستقاة مباشرة من قصة الآنسة « كانبى » .

كانت عادة تمثيل كل ما يروقنى وهضمه ، ثم إعادته ثانية على أنه من بنات أفكارى ، تتجلى فى مكاتباتى الأولى ، وفى أوائل محاولاتى الكتابة والتحرير . ففى موضوع إنشائى كتبته عن مدائن اليونان والرومان القديمة استمددت أوصافى القوية ، بعد إدخال شىء من التعديل عليها ، من مصادر نسيتها الآن كل النسيان . ولما كنت أعرف محبة المستر « أنجانوس » وغرامه الشديد بالدراسات القديمة وتحمسه العظيم لحسن تقدير العواطف الجميلة نحو إيطاليا واليونان ، جمعت من شتى الكتب التى طالعتها كل قطعة من الشعر، أو من التاريخ اعتقدت أنها تدخل السرور على نفسه . فلا غرو أن قال عما كتبته فى موضوع المدن «إن هذه آراء شعرية فى جوهرها» ؛ ولكننى لم أفهم كيف أدرك أن فتاة كفيفة البصر فى الحادية عشرة

من عمرها تستطيع أن تبتكر هذه الآراء . ومع ذلك فلست أعتقد أن كتاباتى كانت خالية من كل ما يعجب ويهم من أجل أنى لم أبتكر تلك المعانى ابتكاراً أصيلا . فقد دلتنى كتاباتى على أن فى مقدورى أن أعبر عن تقديرى للمعانى الشعرية الجميلة بلغة واضحة قوية .

لم تكن كتاباتى الأولى سوى رياضة عقلية . فقد كنت أتعلم صياغة المعانى فى قوالب من الألفاظ بطريق التمثيل والمحاكاة ، كما يتعلم كل ناشىء قليل الخبرة والتجارب . فكنت أعى فى ذاكرتى قصدا أومن غير قصد ، كل ما يروق لى فى الكتب ، ثم أحوله إلى ما يلائمنى. فالكاتب الشادى كما يقول« ستيفنسون Stevenson» يحاول بفطرته أن يحاكى كل مايروقه و يعجبه ، ينقل إعجابه بسرعة عجيبة من موضع إلى موضع . و بعد عدة سنوات فى مثل هذا التمرن ، يتعلم الناس ، حتى العظماء منهم ، أن ينظموا جحافل الألفاظ التى تتزاحم على عقولهم من كل حدب وصوب .

و إنى لأخشى ألاّ أكون قد فرغت بعد من هذه العملية . فمما لا شك فيه أنى لا أستطيع دائماً أن أميز أفكارى من بين الأفكار

التى سبق لى أن قرأتها ، فكل ما أقرأه يصبح مادة عقلى ذاته ونسيجَه الذى لا ينفصل عنه . وعلى هذا كنت فى كل ما أحرره، إنما أنتج شيئاً يشبه إلى حد كبير تلك المرقعات الهوج التى كنت أصنعها فى أول عهدى بتعلم الخياطة ؛ وهى مرقعات كانت تصنع من أمشاج شتى : من قطع جميلة من الحرير ، ومن المخمل ، ولكن القطع الخشنة الغليظة ،التى لا يسر ملمسها الأنامل، كانت هى الغالبة السائدة دائماً ؛ وكذلك كانت كتاباتى تتكون من أفكار وآراء فجة من ثمرات عقلى أنا ، ترصعها أفكار نيِّرة وآراء مشرقة ناضجة من آراء المؤلفين والكتّاب الذين قرأت لهم . ويخيل إلىّ أن أشق صعوبة فى الكتابة هى أن نجعل لغة العقل المثقف أداة للتعبير عن آرائنا المضطربة ، وعما لدينا من أنصاف الوجدانات ، وأنصاف الآراء . ونحن لم نعدُ بعد أن نكون حزما وطوائف من ميول ونزعات فطرية . فمحاولة الكتابة تشبه فى كثير محاولاتنا جمع أحجية من تلك الأحاجى الصينية ؛ فقد يكون فى عقلنا صورة معينة نريد أن نعبر عنها بالألفاظ ، ولكن الألفاظ لا تنطبق تماما على ما نريد ؛ وإن فعلت فإنها تكون غير ملائمة للصورة المنشودة

ومع ذلك فانا نظل ندأب ونحاول المرة بعد الأخرى لأنا نعلم أن غيرنا قد نجح فى ذلك وظفر بأمنيته ؛ وما كنا لنعترف بالهزيمة والخذلان .

قال استيفنسون « لا توجد وسيلة تجعل الإنسان عبقريا أصيلا سوى أن يولد كذلك » ومع أنى قد لا أكون عبقرية أصيلة فانى آمل أن أسمو فى يوم من الأيام عن كتاباتى المتكلفة المصطنعة ؛ ولعل أفكارى، وشتى أنواع خبرتى ،تبدو واضحةفتطفو ظاهرة على السطح . وفى أثناء ذلك سأظل أعتقد وآمل ، وأثابر ، وأحاول ألا أدع ذكرى « ملك الصقيع » المريرة تقف فى سبيل جهودى وتعطلها .

وعلى هذا ، فقد يكون وراء هذه التجربة خير كثير، فقد جملتنى أفكر فى بعض المسائل المتعلقة بالكتابة والتأليف ؛ وأسفى الوحيد أنها أدت إلى فقدان صديق من أعز الأصدقاء وأحبهم إلى نفسى .

منذ نشرت «قصة حياتى» فى مجلة (Ladies Home Journal) كتب المستر «أنجانوس» إلى المستر «ماسى» Macy[1] خطابا ذكر

(١) تزوج جون ألبرت ماسى الآنسة «صاليفان» سنة ١٩٠٥

فيه أنه كان يعتقد ببراءتى ، عندما عرضت مسألة «ملك الصقيع» ؛ وقال إن مجلس التحقيق الذى حاكمنى كان مكونا من ثمانيــة أعضاء : أربعة مبصرون وأربعة من فاقدى البصر ، وقال إن أربعة منهم قرروا أنى كنت أعرف أن قصة الآنسة « كانبى » قرئت لى . أما الآخرون فلم يروا هذا الرأى . وذكر المستر «أنجانوس» أنه أعطى صوته مع الذين صوّتوا فى صفى .

ومهما كان الأمر ، ومع أى جانب أعطى المستر «أنجانوس» صوته ، فانى عندما ذهبت إلى الحجرة التى كثيراً ما كان يجلسنى فيها على ركبتيه وينسى همومه الـكثيرة فيشترك فى عبثى وألعابى ، وجدت فى هذه الحجرة عينهـا أناسا يلوح عليهم أنهم كانوا يشكون فى صدقى ، وشعرت أن فى الحجرة شيئاً معاديا لى ومهددا . وقد أيدت الحوادث فيما بعـد هذا الظن ، فظل المستر « أنجانوس » سنتين يبدو عليه فيهما أنه يعتقد أنى والآنسة « صاليفان » بريئتان مما نسب إلينا ، ولـكن يلوح لى أنه عاد بعد ذلك ورجع عن هذا الرأى الذى فى مصلحتى . ولست أعرف لذلك من سبب . فلم أكن أعرف شيئاً عن تفصيلات الفحص ، بل ولم أعرف قط حتى أسماء

الأعضاء الذين كانوا فى المجلس ، فهم لم يتحدثوا إلىّ فى شيء ، لأنى كنت متهيجة كل التهييج ، ولم ألاحظ شيئاً ؛ وخائفة كل الخوف ،فلم أسأل أى سؤال . والحق أنى لم أكن أعرف ما أقول ولا ما يقال لى .

سردت كل هذا عن مسألة « ملك الصقيع » لأنها كانت ذات شأن فى حياتى وتربيتى ، وحتى لا يكون فى الأمر أى سوء تفاهم ، عرضت الحقائق كلها ، كما بدت ، لى من غير أية فكرة عن الدفاع عن نفسى ، أو إلقاء اللوم على أحد .

الفصل الخامس عشر

المعرض العالمي

قضيت فصلَىْ الصيف والشتاء اللذين تليا حادثة « ملك الصقيع » مع أسرتي في ولاية ألاباما. و إني لأذكر عودتي إليهم بكل فرح واغتباط ، فقد وجدت كل شيء قد تبرعم وازدهر ، وكنت أنا نفسي سعيدة هانئة . أما « ملك الصقيع » فقد قبع في زاوية من زوايا النسيان .

ولما انتثرتْ على الأرض أوراق الخريف بألوانها الذهبية والقرمزية ، وفاح شذا المسك من الأعناب التي تغطى الجميلة في طرف الحديقة ، وأخذت تنقلب في ضوء الشمس سمراء سمرة الذهب — بدأتُ أكتب قصة حياتي بعد أن مضت سنة على كتابتي « ملك الصقيع » .

وكنت لا أزال آنئذ حريصة كل الحرص على مراعاة الدقة في كل شيء أكتبه ؛ فإذا ما خطرت ببالي فكرةُ أن ما أكتبه قد

لا يكون من بنات أفكارى تعذبتُ وتألمت ، ولم يكن أحد يدرى شيئاً عن هذه المخاوف سوى معلمتى . فإن إحساساً غريباً استولى علىّ ومنعنى من أن أشير بشىء إلى « ملك الصقيع » ، هذا وكلما سنحت لى بارقة فكرة ، وأنا أتحدث إلى أحد من الناس ، سارعت إلى معلمتى وتهجيت فى يدها برفق وأناة « أنى لست واثقة من أن هذه الفكرة فكرتى » . وكنت أقول لنفسى أحيانا ، وأنا فى وسط فقرة أكتبها ، لنفرض أنه تبين أن أحداً سبقنى إلى هذا وكتبه من قبلى منذ زمن طويل . فيستولى الخوف على يدى ، ويمنعنى أن أكتب شيئا طيلة اليوم كله . وما زلت أشعر حتى الآن بالقلق والاضطراب نفسيهما . وكانت الآنسة «صاليفان» تواسينى وتعاوننى بكل وسيلة يمكن أن نتصورها. ولكن التجربة القاسية التى مرت بى تركت فى نفسى أثراً لا يمحى ، بدأتُ الآن أدرك مدلوله وأعرف ما كان له من شأن . وما زالت معلمتى بى حتى أقنعتنى بأن أكتب موجزاً لسيرتى وأقدمه لمجلة رفيق الشباب Youth's Companion أملا منها فى أن ذلك يعيد إلى ثقتى بنفسى . وكنت وقتئذ فى الثانية عشرة من عمرى . وكلما رجعت بنفسى إلى التفكير فى جهادى فى كتابة هذه السيرة القصيرة ، اتضح لى أنه لا بدّ أن كانت لدىّ نظرة

صادقة كاشفة تنبأتُ بها عن الخير الذى سيكون من وراء هذا العمل ، و إلاّ فلم يكن لى أى مناص من الفشل والإخفاق فيه .

وأخذت أكتب فى تهيّب وخوف ، ولكن فى عزم وتصميم ؛ تحفزنى معلّمتى وتحثنى ، لأنها كانت تعلم حق العلم أنى إذا ثابرت استعدتُ ثباتى العقلىّ ، وعدتُ إلى السيطرة على مواهبى وقدراتى . فقد عشتُ إلى الآن — إلى حادثة « ملك الصقيع » — حياة الطفل غير الشعورية ؛ أما بعد ذلك فقد عادت أفكارى تنطوى على نفسها ، وصرتُ أرى أشياء غير منظورة ؛ وتدريجياً خرجتَ من ظلمة هذه التجربة بعقل أوضح وذهن أصفى ، و بمعرفة بالحياة أوسع وأقرب إلى الحقيقة .

كانت أهم الأحداث فى سنة ١٨٩٣ رحلتى إلى واشنجطن التى قمت بها بمناسبة تعيين الرئيس كليفلند[1] (Clevland) وزيارتى شلالات نياجرا ، و « المعرض العالَمىّ » . وكانت دراساتى فى هذه الأحوال تتعطل باستمرار ؛ وكثيراً ما كانت تؤجل أسابيع كثيرة ، حتى صار من المستحيل علىّ أن أكتب عنها تقريراً موصولا .

---

(١) كليفلند (١٨٣٨ — ١٩٠٨) هو الرئيس الثانى والعشرون والرابع والعشرون من رؤساء الولايات المتحدة ، فقد انتخب للرياسة مرتين فى سنة ١٨٨٤ و ١٨٩٢ .

ففي مارس سنة ١٨٩٣ زرنا شلالات نياجرا ، وإنه لعسير عليّ أن أصف انفعالاتي ومشاعري عندما وقفت عند النقطة التي تشرف على الأمريكان فولز (American Falls) وشعرتُ بالهواء يتحرك، وبالأرض ترجف .

قد يبدو غريبا لكثير من الناس أن أتأثر بجمال شلالات نياجرا وما فيها من عجائب ، فكانوا دائماً يسألونني : وما عسى أن يعني هذا الجمال أو تلك الموسيقى لك ؟ فأنت لا تستطيعين أن ترى الأمواج وهي تصطخب عند الشاطىء ولا أن تسمعي زئيرها . فماذا تعني هذه لك ؟ إنها تعني كل شيء لي بأوضح معنى ممكن وأجلاه ،ولو أني لست أستطيع أن أسبر معناها ولا أحدده بأكثر مما أستطيع أن أسبر معنى الحب أو الدين أو الخير وأحددها !

وفي أثناء صيف سنة ١٨٩٣ زرت والآنسة «صاليفان» المعرض العالمي (The World Fair) صحبة الدكتور «جراهام بل».وإني لأذكر بسرور خالص لاتشوبه شائبة ما، تلك الأيام التي فيها تحولت آلاف من الأخيلة الطفلية وصارت حقائق قائمة . فكنت أقوم كل يوم برحلة في الخيال حول العالم أشاهد فيها عجائب كثيرة من أبعد

أطراف الأرض ، وهى عجائب من المخترعات وكنوز الصناعات والمهارة ومن سائر مظاهر النشاط الإنسانى تمر تحت أناملى .

وكنت أحب زيارة «ميداوى بلزانس» Midway Plaisance فهى زيارة تروقنى وتعجبنى اذ كانت تبدو مثل ألف ليلة حافلة بكل ما يستثير الاهتمام . وها هى ذى الهند التى كنت أجدها فى كتبى ، وما فى الأسواق الغريبة بما فيها من مناظر شتى ومن الآلهة الفيلة ، وها هى ذى بلاد الأهرام مركزة كلها فى نموذج للقاهرة بجوامعها وقوافل جمالها الطويلة .وثمّ ترع البندقية ، حيث ركبنا فيها السفن كل مساء عندما تضاء المدينة ونافوراتها . وكذلك ركبت مركبا من مراكب « الفكنجز » (Vikings) وكانت على مقربة من السفينة الصغيرة . لقد سبق لى أن تفرجت على مركب حربى من قبل فى بوسطن ،وسرّنى أن أرى فى سفينة «الفكنجز[1] » هذه كيف، كان البحار فى قديم الزمان كل شىء فى السفينة ، وكيف كان يقلع بها فى

---

(١) الفكنجز ـ اسم يطلق على البحارة والقرصان الاسكندنافيين . تجلى نشاطهم فى الغزو والتعدى على البلاد فى القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلاديين

رخاء الريح ، وعاصفة ، بقلب جرىء لا يهاب ، ويطارد كل من يردد صدى قوله : « نحن أبناء البحار » وحارب بعقله وجسمه ، معتمداً على نفسه ، يكفى نفسه بنفسه بدلا من أن تهمل الآلات الصماء شأنه إلى هذا الحد ، وتضعه فى المحل الثانى الذى هوفيه الآن . وعلى هذا يكون حقا : « إن الإنسان وحده هوالذى يهم الإنسان » .

وعلى مسافة غير كبيرة من هذه السفينة كان نموذج يمثل « السانتاماريا »[1] ففحصت هذه السفينة كذلك ،وقد أرانى الربان حجرة « كولومبوس » ومكتبه و « الساعة الزجاجية » التى عليه. وقد أثرت فيّ هذه الآلة الصغيرة أعمق الأثر ، لأنها جعلتنى أفكر كيف أن البحار البطل كان لا شك متعباً كل التعب وهو يرى الرمل يتساقط حبة بعد حبة ،على حين أن رجاله المستيئسين كانوا يأتمرون بحياته .

هذا وقد تفضل المستر هجنبوتام (Higginbotham) مدير

---

(١) « سانتاماريا » اسم إحدى السفن الثلاث التى أقلع بها كريستوف كولومب من أوروبا قاصدا الوصول إلى الهند غربا وكان أن استكشف قارة أمريكا سنة ١٤٩٢

المعرض العلمي وسمح لي بلمس المعروضات ، فلمست ذخائر المعرض وكنوزه بأناملي وأنامتلهفة نهمة مثل نهم بثارّو[1] (Bizarro) وهو يستولي على ذخائر « بيرو » وكنوزها . لقد كانت تلك المدينة المقامة « الغرب » أشبه شيء بقوس قزح محسوس منوع الألوان ، فكل شيء كان يفتنني و يسحرني ولاسيما تماثيل البرونز الفرنسية فهي تمثل الحياة الواقعة كل التمثيل حتى حسبتها رؤى ملك تلك التي ارتآها الفنان وأبرزها في أشكال أرضية .

وفي معروضات « مدينة الرأس الصالح » (Cape of Good Hope) تعلمت أشياء كثيرة عن طرق تعدين الماس ، وكلما أمكن أن ألمس الآلات وهي تتحرك ، لمستها حتى أحصل على فكرة جلية عن كيفية وزن الأحجار وقطعها وصقلها . وقد بحثت في الغُسالة عن الماس ووجدته بنفسي — وكانت الماسة الوحيدة الحقيقية التي وجدت في الولايات المتحدة — هكذا قالوا لي :

---

(١) بثارو — فرنشسكو بثارو (١٤٧٥—١٥٤٦) مغامر إسباني استكشف « بيرو في أمريكا » الجنوبية وقبض على ملك قبائل الإنكا ثم قتله .

وكان الدكتور (بلْ) يصحبنا فى كل مكان ؛ يصف لنا بأسلوبه الساحر أهم ما فى المعروضات . ففحصنا فى قسم الكهرباء التلفونَ و« الأوتوفون » والفونوغراف وغيرهامن المخترعات،وشرح لى كيف يتسنى لنا أن نرسل برسائل على الأسلاك تسخر من المسافات والأبعاد ، وتسبق الزمن ،وكيف نقبس النار من الجو مثل « بروميثيوس[1] » . ثم زرنا القسم الانثرو بولوجى فاهتممت كل الاهتمام بآثار المكسيك القديمة ، و بآلات الظران الغليظة التى كثيراً ما تكون هى الآثار الوحيدة التى لدينا عن عصر معين — الآثار البسيطة الساذجة التى خلّفها أبناء الطبيعة الأميون (هكذا تصورتها عندما لمستها) والتى قدر لها أن تدوم على حين تداعت آثار الملوك والحكماء واستحالت

---

(١) اشتهر بروميثيوس فى أساطير اليونان القديمة بأنه محب لبنى الإنسان . وتقول الأساطير إن زيوس كبير الآلهة استخدمه لينشىء له قوما من الطين .فلما أنشأهم أشفق عليهم. فسرق من السماء نارا ووهبها لبنى الانسان . فقضى عليه زيوس وقيده بالأغلال وربطه فى جبل القوقاز . وكان ينقض عليه كل يوم نسر كبير ينهش كبده فى النهار ثم تعود سيرتها الأولى فى الليل ، ولكن « هركول » استطاع أن يقتل النسر ويخلص بروميثيوس محب الإنسانية

ترابا .أما الموميات المصرية ، فقد أحجمتُ عن لمسها خوفاً وفزعاً .
إن ما تعلمته من هذه الآثار الباقية ، عن تقدم الإنسان فى سبيل الحضارة، ليفوق ما سمعته فيما بعد عن ذلك التقدم ، أو قرأته عنه فى الـكتب .

ولقد أضافت ألوان الخبرة هذه ألفاظا جديدة إلى محصولى من اللغة، فقفزتُ فى الأسابيع الثلاثة التى قضيتها فى التفرج على «المعرض العالَمى » قفزة طويلة انتقلت بهـا من اهتمام الطفل الصغير بقصص « الحوريات » وباللُّعب إلى تقدير ما فى دنيا العمل اليومىّ من كل ماهو حقيقى وجدِّى .

الفصل السادس عشر

اللغات الأجنبية

قبل أن يحل أكتوبر سنة ١٨٩٣ ، كنت قد درست وحدى عدة علوم وموضوعات شتى بطريقة غير منظمـة . فقرأت تواريخ اليونان والرومان والولايات المتحدة ؛ وكان عندى كتاب فى نحو اللغة الفرنسية مطبوع بالحروف البارزة . وإذ سبق لى أن درست شيئا من الفرنسـية ، فقد جعلت أسلّى نفسى بتكوين تمارين قصيرة فى عقلى ، أستعمل فيها الألفاظ الجديدة من غير نظر إلى قواعد النحو أو غيرها من الأمور الفنية ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا . ولا يدهشنك أن أقول إنى حاولت ، من غير معاونة من أحد ، أن أتقن نطق الألفاظ الفرنسية، بعد أن وجدت جميع الحروف والأصوات موصوفة فى الـكتاب الذى فى يدى . ولا شك أن فى هذا إرهاقا كبيراً لقوى ضئيلة لأغراض عظيمة ، على أنه يسّـر لى أشياء أعملها وأشغل بها نفسى فى الأيام العصيبة ، وزودنى بمحصول كاف من

المعرفة باللغة الفرنسية مكنني من قراءة قصص لافونتين[1] بلغتها الأصلية ، وأن أستمتع بقراءتها ، كما قرأت كذلك « الطبيب رغم أنفه »[2] (Le Medecin Malgré lui) وقطعاً من كتاب أتالى[3] (Athalie) .

كذلك خصصت جزءاً كبيراً من الوقت لتحسين كلامى ؛ فكنت أقرأ بصوت عال للآنسة «صاليفان» ، وأسمِّع لها مقطوعات للشعراء الذين أحبهم كنت حفظتها عن ظهر قلب . وكانت هى تقوم بتصحيح نطقى وتعاوننى على حسن صياغة الجمل والعبارات وعلى تصريف

---

(١) «لا فونتين» ــ هو جان دولافونتين (١٦٢١ ــ ١٦٩٥) شاعر فرنسى أديب اشتهر بمهارته فى فن القصص . كتب قصصه المشهورة باسمه بين سنتى ١٦٦٨ ــ ١٦٨٠

(٢) « طبيب رغم أنفه » ــ مسرحية كوميدية فرنسية لموليير (١٦٢٣ ــ ١٦٧٣) كتبها سنة ١٦٦٦ . وقد مثلتها أخيراً فرقة المسرح الحديث بدار الأوبرا المصرية .

(٣) أتالى ــ مسرحية تراجيدية للشاعر الفرنسى راسين (١٦٣٩ ــ ١٦٩٩) كتبها سنة ١٦٩١ ويرى بعض النقاد أنها خير ما كتبه .

الأفعال . ومع ذلك فإنى لم أبدأ فى تلقى دروس فى مواد خاصة وفى ساعات معينة ، إلاّ بعد شهر أكتوبر سنة ١٨٩٣ ، بعد أن استرحت مماحلّ بى من التعب عقب زيارتى « للمعرض العالمى » .

وكنت فى ذلك الوقت مع الآنسة «صاليفان» فى مدينة هاطون (Hutton) من أعمال ولاية « بنسلفانيا» نزور المستر وليام و يد (William Wade) وأسرته. وكان لهم جار عالم باللغة اللاتينية هو المستر أيرنز (Irons) فاتفقنا على أن أدرس عليه . وأذكر أنه كان رجلا ذا طبع حلو نادر ، وخبرة واسعة . فكان يعلّمنى نحو اللغة اللاتينية بوجه خاص ، ولكنه كثيراً ما كان يساعدنى فى الحساب وهى مادة متعبة فى رأيى ، بقدر ما هى جافة غير شائقة . وقرأت عليه كذلك قصيدة In Memmorium للشاعر تنِسون[1] . ومع أنه سبق لى أن قرأت كتباً كثيرة قبل ذلك ، فإنى لم أقرأ كتاباً واحداً منها قراءة نقد وتمعن ، فتعلمت لأول مرة أن أعرف شيئاً عن الشاعر

---

(١) Tennyson (١٨٠٩—١٨٩٢) الشاعر الإنجليزى المشهور. نشر أول ديوان له سنة ١٨٣٠ وكتب قصيدة In Memorium لذكرى صديقه «أرثر هلام » سنة ١٨51

وألم بأسلوبه وأدركه كما أدرك قبضة يد صديق من الأصدقاء .

ولم أكن أول الأمر راضية عن دراسة نحو اللغة اللاتينية ؛ فقد كان يبدو لى سخيفاً أن أضيع الوقت فى تحليل كل كلمة أصادفها — فهذا اسم ، مجرور ، مفرد ، مؤنث — على حين أن معناه جلىّ واضح كل الوضوح . وتصور أن ذلك أشبه ما يكون بأن أصف حيواني المستأنس وصفاً علمياً كى أعرف أنه هو .

ولكن كلما تعمقت فى دراسة النحو ازداد اهتمامى به ، وراقنى ما فى اللغة اللاتينية من جمال . وكثيراً ما كنت أسلّى نفسى بقراءة مقطوعات لاتينية ، فأنتقى الألفاظ التى أعرفها وأحاول أن أجعل منها معنى ، ولم أنقطع يوماً من الأيام عن التمتع بهذه التسلية .

لا أظن أن ثمة شيئاً أجمل من الصور العقلية العابرة السريعة الزوال ، والعواطف التى تقدمها لنا لغة بدأنا نتعلمها لنعرفها — أفكار تمر مسرعة فى سماء العقل يُشكّلها خيالُنا المتقلب ، و يصبغها بما يشاء . وكانت الآنسة «صاليفان» تجلس بجانبى فى أثناء ما أتلقى دروسى ، وتهجى لى كل كلمة يقولها المستر أَيَرْنز (Irons) وتبحث لى فى المعاجم عن كل كلمة جديدة علىّ ؛ وقبل عودتى إلى أهلى فى

ألا يا ما كنت قد بدأت أقرأ كتاب « حرب الغال »[1] لمؤلفه يوليوس قيصر[1].

يوليوس قيصر (١٠٢ — ٤٤ ق م) من أكبر قواد الرومان وساستهم . عين حاكما لبلاد الغال فأخضعها لسلطان رومية بعد تسع سنوات ، فأثار نجاحه غيرة بومبى . فاستدعى إلى رومية . فلما جاء خضعت له إيطاليا كلها سنة ٤٩ ق م . وعلى الرغم من مشاغله الكثيرة كان يعنى بالأدب والتاريخ ؛ وله مؤلفات ضاع أكثرها ولم يصل إلينا منها سوى كتابه Commentarii وفيه يسرد تاريخ السنوات السبع الأولى من حروبه فى بلاد الغال (فرنسا) .

الفصل التاسع عشر

مدرسة الصم

حضرت اجتماع الاتحاد الأمريكي لترقية تعليم البكم النطق » الذى عقد فى تشوتوكوا (Chutauqua) صيف سنة ١٨٩٤ . وقد تم الاتفاق فى هذا الاجتماع على أن ألتحق بمدرسة «رايط هوماسون» (Wright Humason) فى نيويورك ، وهى مدرسة لتعليم الصم ؛ فذهبت اليها فى أكتوبر سنة ١٨٩٤ صحبة الآنسة «صاليفان» وقد اختيرت لى هذه المدرسة بوجه خاص كى أحصل على أكبر فائدة من الثقافة الصوتية ، وأتدرب التدريب الصحيح على قراءة الشفاه ؛ وزيادة على عملى فى هذه المواد، درست فى السنتين اللتين قضيتهما فى هذه المدرسة الحساب والجغرافيا الطبيعية واللغتين الألمانية والفرنسية

وكانت مدرّسة اللغة الألمانية الآنسة «ريامى» (Reamy) ، ملمة بطرق استخدام «الألف باء» اليدوية . فلما حصلت على طائفة صغيرة من الألفاظ الألمانية طفقنا نتحدث بهذه اللغة كلما أتيحت لنا

فرصة لذلك . فلم تمض على بضعة شهور حتى كدت أفهم كل شيء تقوله لى . وقبل أن تنتهى السنة الأولى قرأت «فيللم تل»[1] Wilhelm Tell واستمتعت بها أى استمتاع . ويخيل إلى أنى تقدمت فى دراسة اللغة الألمانية أسرع من تقدمى فى دراسة أية مادة أخرى ؛ فكنت أجد اللغة الفرنسية أصعب منها على وأشق . وقد درستها على السيدة أوليفيه (Olivier) وهى سيدة فرنسية لا تحسن استخدام الألف باء اليدوية ، ولذا كانت مضطرة الى الالتجاء إلى الطرق الشفهية مع أنى لم أكن أستطيع قراءة شفاهها فى سهولة ويسر ، فكان تقدمى فى هذه اللغة أبطأ بكثير من تقدمى فى اللغة الألمانية ؛ ومع ذلك فقد استطعت أن أقرأ من جديد كتاب «طبيب رغم أنفه» وكان كتابا مسليا حقا ومع ذلك لم يرق لى بقدر ماراق لى كتاب فيللم تل

(١) بطل سويسرى عاش فى أوائل القرن الرابع عشر ، وكانت بلاده تحت سيطرة النمسويين ، فقاوم حاكمها فقبض عليه هذا وسجنه ثم وعده بإطلاق حريته لو أنه أصاب بنباله تفاحة على رأس ابنه ، ففعل «تل» وأصاب التفاحة من غير أن يصيب ابنه بأذى ما ولكنه عاد وصوب نباله نحو الحاكم النمسوى وقتله . فاتخذ شيلر هـذا الحادث موضوعا لمسرحية كتبها سنة ١٨٠٤ واتخذه روسينى موضوعا لاوبرا

لم يكن تقدمى فى تعلم الـكلام وفى قراءة الشفاه كبيرا بالقدر الذى كنت أتوقعه وأؤمله، ويؤمله معى أساتذتى . فقد كنت أطمح أن أتكلم كما يتكلم سائر الناس ؛ وكان أساتذتى يعتقدون ذلك ميسوراً لى. ولـكن مع أننا اشتغلنا بجد و إخلاص، لم نصل الى غايتنا التى رمينا اليها ؛ وأظن أننا رمينا إلى أبعد مما ينبغى ، فكان لا مناص من الخذلان وخيبة الآمال .

وكنت لا أزال أعد الحساب سلسلة من الشراك والحفر . ولذا بقيتُ فيه عند حدود الحزر والتخمين الخطيرة لا أتعداها، وتحاشيت وادى التفكير العريض، بعد أن قاسيت من ذلك مشقة لا حد لها وقاسى مثلها غيرى معى . فقد كنت عندما لا أحزر ولا أخمن أقفز الى النتيجة قفزا . وكان هذا العيب يزيد من متاعبى أكثر مما ينبغى؛ أو على الأقل أكثر مما هو ضرورى ، ذلك فضلا عما أنا عليه من غباء .

ومع أن خيبة الآمال هذه كانت تجعلنى فى بعض الأحيان مكتئبة ، كاسفة البال ، فقد جعلت أتابع دراساتى الأخرى باهتمام عظيم لا ينفد ، ولاسيما الجغرافيا الطبيعية . فمن بواعث فرحي أن أقف على أسرار الطبيعة وخفاياها ؛ فأعرف كيف ـ بتعبير العهد القديم ـ تهب الرياح من أربعة أركان السماء ، وكيف تتصاعد الأبخرة من

الأرض ، وكيف تنحت الأنهار مجاريها فى الصخور ؛ وكيف تنقلب الجبال رأسا على عقب ، وكيف يتيسر للانسان أن يتغلب على قوى أشد من قواه وأعظم . لقد كانت السنتان اللتان قضيتهما فى نيو يورك حافلتين بالسعادة ؛ وكلما عدت بذاكرتى اليهما شعرت بالسرور النقى الخالص .

وإنى لأذكر بوجه خاص رياضتنا اليومية ، التى كنا نقوم بها على الأقدام فى سنترال بارك (Central Park) ، وهو المتنزّه الوحيد الذى يصلح لى فى تلك المدينة ، فلم يحدث أن زال عنى أى شىء من سرورى بهذا البستان العظيم . فكنت أحب أن يُوصف لى كلما دخلتُه ، فهو رائع جميل من أى وجهة نظرتَ إليه منها ، وهى وجهات كثيرة متعددة، ولذا كان جماله يتغير ويتجدد فى كل يوم من أيام الشهور التسعة التى قضيتها فى نيو يورك .

ولما جاء الربيع قمنا فيه برحلات ونزهات فى أمكنة كثيرة مُنَوعة جذابة ، فركبنا السفن فى نهر « هدسن » وتجولنا على ضفافه المكسوة بالخضرة ، والتى كان بريانت »[1] (Bryant)

(١) هو وليام كولن برايانت William Cullen Bryant =

يحب أن يتغنى بها و يشيد بذكرها .ولقد أعجبنى مافى الصخور هناك من عظمة ساذجة . ومن الأماكن التى زرتها وِستْ بُوينْتْ (West Point)و «تيرى تاون» Terry Town بلدة واشنجطن أيرفنج (Washington Irving)[1] . وفى هذه البلدة سرتُ فى السليبنج هولو (Sleeping Hollow) .

كانت المدرسات فى مدرسة « رايط هوماسون » مشغولات باستمرار يضعن الخطط التى ييسّرن بها لتلميذاتهن كلَّ ميزة يتمتع بها البنات السامعات ، والعمل للوصول إلى طرق يستغللن بها النزعات القليلة والذاكرات السلبية التى لدي الصغار ، حتى يخرجن بهن من الأحوال الضيقة المقيدة التى قضى عليهن أن يعيشوا فيها .

= شاعر أمريكى من شعراء القرن التاسع عشر (١٧٩٤—١٨٧٨) اشتغل أول الأمر بالصحافة فى نيويورك وتولى رياسة تحرير إحدى جرائدها الكبيرة خمسين سنة وتعد قصيدته Thanatopsis من أوائل عيون الشعر الأمريكى .

(١) واشنجطن إيرفنج — (١٧٨٣ — ١٨٥٩) مؤرخ أمريكى أديب ، اشتهر بكتبه فى التاريخ وبمقالاته فى المجلات .ولد فى نيويورك وعاش فيها وساح فى كثير من البلاد . ومن أهم كتبه « تاريخ نيويورك » و « حياة محمد » و«حياة واشنجطن »

وقبل أن أغادر مدينة نيو يورك حدث أن شاب تلك الأيام المشرقة السعيدة أشد حزن شعرت به بعد وفاة والدى ؛ فقد توفى المستر سبولدنج (I.P. Spalding) فى فبراير سنة ١٨٩٦ ؛ ولا يتسنى لغير الذين عرفوه وأحبوه أن يدركوا معنى صداقته لى ، فإنه جعل كل شخص حوله سعيداً ، وذلك بطريقة جميلة لا يجد فيها أحد أية مضايقة . وكان شفيقاً رقيقاً حدباً على الآنسة «صاليفان» وعلىّ ، فما دمنا شاعرين بوجوده الحبيب إلينا وعارفين بمدى اهتمامه بعملنا الحافل بكثير من الصعاب والمتاعب لم تكن تثبط لنا همة ولا يفل لنا عزم ؛ فلا غرو أن أحدثت وفاته فى حياتنا فراغاً لا يستطيع أحد أن يملأه .

الفصل الثامن عشر

مدرسة كمبريدج

وفى أكتوبر سنة ١٨٩٦ التحقت بمدرسة كمبريدج للفتيات استعداداً لدخول كلية « راد كليف » (Radcliffe) فيما بعد . وكنت قد زرت فى صغرى كلية « ولزلى » (Wellesley) وفاجأت أصدقائى بإعلان عزمى لهم على الالتحاق بالكلية فى يوم من الأيام ، وزيادة على ذلك أكدت لهم بأنى سأذهب إلى «هارفارد» نفسها . ولما سألونى لِمَ لا أذهب إلى (ولزلى) أجبتهم لأنها لا تقبل غير الفتيات . وقد رسخت فى نفسى فكرة الالتحاق بالكلية هذه أيما رسوخ ، وأضحت رغبة ملحة تحفزنى باستمرار إلى النزول إلى الميدان لمنافسة الفتيات المبصرات فى الحصول على درجة من

---

(١) كمبريدج هذه مدينة فى أمريكا من أعمال ولاية مساشوستس تقع على نهر تشارلس أمام بوسطن ، وهى مركز ثقافى هام حول كلية هارفارد .

الدرجات الجامعية ، وذلك على الرغم مما لقيته من معارضة قوية أبداها كثيرون من أصدقائى المخلصين العقلاء .

ومذ غادرت نيويورك صارت فكرة الالتحاق بالكلية غرضا لى وضعته نصب عينى . وأخيرا تم الاتفاق على أن ألتحق بمدرسة كمبريدج لأنها أقرب المعاهد إلى « هارفارد »، و إلى تحقيق ما أعلنته لأصدقائى من عزم صبيانى .

وكان المفروض أن تحضر « الآنسة صاليفان » الدروس معي فى مدرسة كمبريدج وتترجم لى ما يلقى فيها من محاضرات .

ولا يخفى أن أساتذه هذه المدرسة ليس لديهم أية خبرة بتعليم غير التلميذات العاديات ، ولم تكن عند أى أية وسيلة أتحدث بها إليهم غير قراءتى لشفاههم وكانت المواد المقررة علىّ فى السنة الأولى تاريخ انجلترا ، والأدب الانجليزى . واللغة الألمانية ، واللغة اللاتينية والانشاء اللاتينى ، والحساب ، وبضع مواد اختيارية أخرى . ومع أنى لم أكن قد تلقيت قبل الآن مقرراً تعليميا منظماً قصد إعدادى للالتحاق بالكلية فالآنسة «صاليفان» كانت در بتنى خير تدريب فى اللغة الانجليزية .فتبين لأساتذتى أنى لست بحاجة كبيرة إلى تدريب خاص فى هذه المادة ، وكل ما أحتاجه هو دراسة نقدية للكتب

المقررة علينا . وكـذلك كنت قد حصلت شيئاً من اللغة الفرنسية ، وقضيت ستة شهور فى دراسة اللغة اللاتينيه : أما اللغة الألمانية فكانت المـادة الحبيبه إلى نفسى ، وكان علمى بها أكثر من علمى بغيرها من المواد .

وعلى الرغم من هذه الميزات، فقد كانت هناك عقبات كأداء فى سبيل تقدمى فى الدراسة . فلم يكن فى طاقة « الآنسة صاليفان » أن تهجى لى فى يدى كل ما تتطلبه مني الـكتب المقررة ، وكان من العسير أن تطبع جميع الـكتب المدرسية اللازمة بالحروف البارزة فى الوقت المـلائم ، حتى يتيسر لى فيه أن أفيد منها فائدة حقيقية مؤكدة ، و إن كان أصدقائى فى « لندن » وفى «فيلادلفيا» أبدوا استعدادهم لا ستعجال إنجاز هـذا الطبع . ذلك إلى انى اضطررت أن أقضى فترة طويلة أنسخ فيها مقرر اللغة اللاتينية نسخاً جديداً بطريقة « براى » حتى أتمكن من أن أسمّع مع الطالبات الأخريات ؛ ولـكن أساتذتى لم يلبثوا طويلا حتى تعودوا على نطقى القاصر ، وتمـكنوا من أن يجيبوا عن أسئلتى ويصلحوا لى أخطائى . ولم أكن أستطيع أن أكتب مذكرات عما يلقى من

دروس فى الفصل ، ولا أن أؤدى التمرينات المطلوبة منى ، ولكنى كنت أؤدى كل ما علىّ من الإنشاء ومن التراجم فى بيتى فأكتبه على آلتى الكاتبة .

وكانت « الآنسة صاليفان » تحضر معى الدروس فى كل يوم فى فصول الدراسة ، تتهجى فى يدى ، بصبر لا ينفد ، كل ما يقوله المدرسون ؛ كما كان عليها أن تبحث لى فى ساعات الاستذكار عن الكلمات الجديدة على فى شتى المعاجم ، وتقرأ المذكرات والكتب التى لا توجد نسخ منها مطبوعة بالحروف البارزة ؛ وتعيد قراءتها علىّ المرة بعد المرة . ولا شك أنه من العسير عليك أن تتصور ما فى هذا العمل الشاق المضنى من سأم وملل .

وكانت السيدة «جروته» (Grote) والمستر «جيلمان» الوحيدين فى المدرسة ، اللذين درسا الألف باء اليدوية وصار يمكنهما أن يدرسا لى . ولا يستطيع أحد أن يدرك ، أكثر من السيدة «جروته» نفسها ، مقدار ما كان فى تهجيها من بطء وقصور . ومع ذلك فقد دفعتها طيبةُ قلبها وحبها للخير أنه تجشم نفسها مؤنة أن تتهجى لى دروسها في حصتين خصصتهما لى كل أسبوع ، حتى تتيح للآنسة

«صاليفان» قسطا من الراحة والاستجمام . ومع أن كل إنسان كان يعطف علينا ولا يتأخر عن معاونتنا ، فليس غير يد واحدة تستطيع أن تحوّل العمل الشاق المضنى إلى سرور وارتياح .

فرغتُ فى تلك السنة من دراسة الحساب ، وراجعتُ مقرر النحو فى اللغة اللاتينية ، وقرأت ثلاثة فصول من كتاب « قيصر » عن « حرب الغال » وفى اللغة الألمانية قرأت عدة كتب ، بأصابعى أحيانا وأخرى بمعاونة « الآنسة صاليفان » ، فقرأت لشيلر[1] (Lied von der Glocke) و (Taucher) ولهاينه[2] (Harzreise)

---

(١) شيلر : (١٧٥٩ — ١٨٠٥) شاعر ألمانى ومؤلف مسرحى ، فضلا عن أنه فيلسوف ومؤرخ . كان لأول مأساة أخرجها (Die Rauber) الأثر العميق فى القرن الثامن عشر . وهو مؤلف رواية فيلم تل (سنة ١٨٠٤) المشار إليها من قبل .
ومن شعره الغنائى قصيدة (Das Lied von der Glocke) التى نشرها سنة ١٨٠٠ .

(٢) هاينه : (١٧٩٧ — ١٨٥٠) شاعر غنائى ألمانى ، نشر أول ديوان له سنة ١٨٢١ وبعد سنة ١٨٣٠ عاش فى فرنسا . ومع أنه قد فلج وكف بصره فلم ينقطع عن جهوده الأدبية حتى وفاته

و«لفرايتاج»[1] Aus dem Staat Friedriches Des Grossen
وقرأت كتاب Flueh Der Schonheit لريل (Riehl)
وكتاب Minna Yon Barnhelm للسنج[2] (Lessing)
كما قرأت Aus Meniemi Leben لجوته[3] .

وكنت أستمتع بقراءة هذه الكتب الألمانية كل الاستمتاع ولاسيما أشعار « هاينه » الغنائية المطربة وتاريخ أعمال فردريك الكبير العظيمة ، وقصة حياة جوته . وقد أسفت كل الأسف أن

---

(١) فرايتاج (١٨١٦ — ١٨٥٩) روائى ألمانى ومؤلف مسرحى وناقد . اشتغل بالصحافة ونشر عدة مسرحيات كوميدية واشتهر برواية « منه له » Soll und Haben التى ترجمت إلى معظم اللغات الأوربية .

(٢) لسنج ١٧٢٩ — ١٧٨١ مؤلف مسرحى وناقد ألمانى والرواية المشار إليها فى النص هى أعظم مسرحياته وقد ظهرت سنة ١٧٦٧ .

(٣) جوتة (١٧٤٩ — ١٨٣٢) أديب ألمانى عالمى — فهو شاعر وسياسى وعالم فيلسوف . وهو مؤلف « فاوست » التى ظل يعمل فيها فى فترات من سنة ١٧٩٠ حتى قبل وفاته ، وهى مترجمة الى العربية نقلها اليها الدكتور محمد عوض محمد بك .

أفرغ من قراءة كتاب Die Harzreise الحافل بالكثير من الطرائف والنكات الرائعة، وبالأوصاف الساحرة للتلول الكاسية بالكروم، المليئة بمجارى المياه التى تنساب فى ضوء الشمس تغنى وتتماوج، وبالأقاليم البرية الموحشة المقدسة فى نظر المأثور من الرواية والأساطير. وكلها أوصاف لا يستطيع أن يؤديها خير الأداء إلاّ من كانت الطبيعة عنده «وجدانا وحبا وشهوة».

ودرست على المستر «جيلمان» أدب اللغة الانجليزية بضع شهور من السنة فقرأنا معا مسرحية As you Like it[1] وخطب «برك»[2] عن الصلح مع أمريكا، ورسالة ما كولى[3] عن حياة صمويل

---

(١) لشكسبير

(٢) برك Edmund Burke (١٧٢٩ — ١٧٩٧) خطيب إنجليزى ولد فى إيرلنده ودخل البرلمان سنة ١٧٦٥. اشتهر بخطبه فى ثورة أمريكا على الاستعمار الإنجليزى، ومع ذلك كان خصما عنيداً للثورة الفرنسية.

(٣) ما كولى (١٨٠٠ — ١٨٥٩) مؤرخ إنجليزى، وأديب من كتاب المقالات والرسائل، ومن بين مقالاته التاريخية مقالته الطويلة عن «صمويل جونسون».

جونسون[1] (Life of Samuel Johnson) وكانت آراء « المستر جيلمان » السمحة الواسعة فى التاريخ والأدب ، وشروحه المفيدة تيسر لى عملى وتجعله أسهل وأمتع مما لو اقتصرت فيه على قراءة المذكرات قراءة آلية ، مع تلك الشروح الموجزة ، بالضرورة ، التى يشرحها المدرسون لتلاميذهم فى فصول الدراسة .

وكانت خطبة « برك » أفيد لى من أى كتاب قرأته فى موضوع سياسى ، فقد تهيج عقلى واضطربت نفسى لتهييج تلك العصور واضطرابها ، وتجلت لى الشخصيات التى تركزت حولها حياةُ أمتين متحاربتين كأنها تتحرك فعلا أمامى ؛ وازددت عجباً من أن الملك جورج[2] ووزراءه قد أولوا نبوءة « برك » المنذرة بفوزنا واندحارهم آذانا صماء ، بينا كانت خطبة « برك » الرائعة تنهمر فى أمواج قوية من الفصاحة وحسن البيان . ثم درست

---

(١) صمويل جونسون (١٧٠٩ — ١٧٨٤) لغوى إنجليزى ، وأديب ناقد ؛ اشتهر بمعجم اللغة الإنجليزية نشره سنة ١٧٥٥ وعاش طيلة حياته فى ضيق وكدح .

(٢) جورج الثالث ملك إنجلترا (١٧٦٠ — ١٨٢٠)

التفصيلات المحزنة لعلاقة هذا السياسى العظيم بحزبه ، وبممثلى الشعب ، وقلتُ ما أغرب أن تقع هذه البذور الغالية من بذور الحقيقة والحكمة بين أعشاب الجهل والرشوة والفساد الضارة !

وكان كتاب « ما كولى » عن ترجمته لحياة الأديب « صمويل جونسون » شائقاً لى من وجهة أخرى تختلف عن تلك ؛ إذ كان عقلى يتجه إلى ذلك الرجل المتفرد ، الذى كان يشقى فى شارع « جرَبْ » Grub Street . فقد كان على ما هو فيه من معاناة آلام الجسم والروح ، وكدح فى سبيل العيش — لا تفوته كلمة طيبة يقولها ، أو مساعدة نافعة يقدمها للفقير والمحتقر . وكنت أفرح كل الفرح بأى نجاح يصادفه ، وأغض طرفى عن عيوبه . ولم يكن عجبى من أن له عيوباً كثيرة ، ولكنى عجبت من أن هذه العيوب لم تسحق نفسه ، وتعجزها عن كل شىء . وعلى الرغم من لباقة « ما كولى » وعجيب قدرته التى تجعل التافه السفاف يبدو جديداً ناضراً ، فإن تقريراته وتوكيداته كانت تعنتنى أحياناً ،وكان كثيرة ما يضحى به من الحقيقة حباً فى التأثير فى قرائه ، ليجعلنى فى موقف تساؤل يخالف موقف التوقير والإجلال الذى وقفته إزاء «ديموستين» بريطانيا .

ولأول مرة فى حياتى تمتعت فى مدرسة كمبريدج بصحبة لداتى الفتيات البصيرات السامعات ، اللواتى من سنّى . وكنت أقطن مع عدد منهن فى بيت من البيوت البهجة التابعة للمدرسة ، وهو بيت كان يسكنه المستر « هاولز » (Mr Howells) وكنا جميعاً نستمتع بميزة الحياة المنزلية ، فاشتركت مع البنات فى كثير من ألعابهن ، حتى فى ألعاب الثلج ، وكنت أسير معهن مسافات طويلة فى الهواء الطلق . هذا ، وقد تعلمت بعضهن أن يتكلمن معى و بذلك لم تعد الآنسة « صاليفان » بحاجة إلى أن تعيد علىّ حديثهن .

وفى عيد الميلاد جاءت والدتى وأختى الصغيرة لقضاء العيد معى ، وتفضل المستر « جيلمان » فسمح « لميلدرد » أن تدرس معنا فى المدرسة ، فبقيتْ معى فى كمبريدج ؛ ولم تكد تنفصل واحدة منا عن أختها طيلة الستة الشهور الهنية السعيدة . و إنى ليسعدنى كل السعادة أن أتذكر دائماً تلك السويعات التى قضيناها ، تساعد كل منا الأخرى فى دروسها وفى الاشتراك فى التنزه والرياضة .

بدأت امتحاناتى الأولى فى كليـة « رادكليف » في التاسع والعشرين من شهر يونية وانتهت فى اليوم الثالث من يولية سنة ١٨٩٧ ،

واخترت أن يكون امتحانى فى مبادىء اللغة الألمانية ، واللغة الألمانية الراقية ، واللغات الفرنسية ، واللاتينية، والإنجليزية ؛ وفى تاريخ اليونان والرومان . وهى فى مجموعها تستغرق تسع ساعات ؛ وقد فزت فيها كلها وحصلت على درجة الشرف فى اللغتين الألمانية والإنجليزية .

ولعله من المناسب فى هذا المقـام أن أشرح هنا الطريقة التى كانت متبعة فى الامتحان عندما تقدمتُ إليه . فكان على الطالبة أن تنجح فى امتحانات تسـتغرق ١٦ ساعة ، ١٢ منها تسمى « أوليات » أو « مبادىء » ، وأربع تسمى « راقية » . وينبغى أن تمر الطالبة كل خمس ساعات معا حتى تحتسب لها . وكانت أوراق الأسئلة توزع فى « هارفارد » وتُرسل فى الساعة التاسعة صباحا إلى « رادكليف » مع مندوب خاص ؛ وكان كل طالب يعرف برقم جلوسه لا باسمه ؛ فكان رقمى ٢٣٣ . وإذ كنت مضطرة إلى استعمال الآلة الكاتبة فى إجابتى عن الأسئلة لم يكن من الميسور إخفاء هويّتى عن الممتحنين .

ورأى أولو الأمر فى الـكلية أن من الخير لى أن يكون امتحانى فى حجرة خاصة حتى لا يضايق صوتُ الآلة الطالبات الأخريات .

وكان «المستر جيلمان» يقرأ لى أوراق الأسئلة كلها بطريقة «الألف باء» اليدوية، وأمر بأن يقف على حجرتى رجل يمنع عنى أى أحد من التدخل فى شأنى وتعطيلى .

ففى اليوم الأول أديت الامتحان فى اللغة الألمانية ، وجلس المستر «جيلمان» بجانبى يقرأ علىّ ورقة الأسئلة كلها دفعة واحدة ، ثم جملة جملة ؛ وأعدت عليه الألفاظ حتى يستيقن أنى فهمت المطلوب منى حق الفهم . وكانت الأسئلة عويصة ، فتولانى القلق وأخذ منى مأخذه وأنا أكتب إجاباتى على الآلة الكاتبة . وكان المستر «جيلمان» يتهجى لى ما دونته فى ورقة الإجابة، ثم أقوم بعمل ما أريد من التصويبات والتغييرات التى أرى ضرورة إدخالها على ما كتبت ، فيدونها هو فى الورقة .

وأود أن أقول هنا انى لم أحصل على مثل هذه الميزة بعد ذلك فى أى امتحان آخر من الامتحانات التى تقدمت اليها فيما بعد . فلم يكن أحد فى « رادكليف » يقرأ لى إجاباتى بعد فراغى من كتابتها فى ورقة الاجابة ، ولم تكن لدىّ فرصة ما لإصلاح أخطائى وكتابة ما يعنّ لى من تصويبات، اللهم إلا إذا فرغت من الاجابة قبل الميعاد المحدد لها، وعندئذ لا يكون فى استطاعتى أن أصلح

غير الأخطاء التي أتذكر أني قد وقعت فيها — وذلك في الدقائق القليلة الباقية . فكنت أكتب مذكرات قصارا عن هذه التصويبات ، وأدونها في ورقة أخرى من أوراق الاجابة . فإن كنت فزت في الأوراق « الأولية » بدرجات أعلى مما فزت به في الأوراق « النهائية » فمرد ذلك إلى أمرين : لم يكن أحد يقرأ لي إجاباتي مرة ثانية في الامتحانات النهائية ؛ ذلك إلى أني اخترت أن أؤدي الامتحان في الأوراق الأولية في مواد كانت معهودة لي من قبل أن التحق بمدرسة كمبريدج هذه . ففي بداية السنة الدراسية كنت قد نجحت في أسئلة اللغة الانجليزية ، وفي التاريخ ، واللغتين الفرنسية والألمانية التي كان المستر « جيلمان » قد اختارها لي من أوراق امتحانات سابقة من امتحانات « هارفارد » .

و بعد الفراغ من الامتحان أرسل المستر « جيلمان » أوراق إجاباتي إلى المتحنين مع شهادة منه بأن الطالبة رقم ٢٣٣ هي التي دونت هذه الإجابات بنفسها .

وكان نظام الامتحان في الأوراق « الأولية » يسير على هذا النظام عينه . ولم يكن منها امتحان يوازي الامتحان الأول في

الصعوبة . ولست أنسى ذلك اليوم الذى وزعوا فيه علينا أوراق الأسئلة فى مادة اللغة اللاتينية ، فقد دخل الأستاذ «شلنج» و بشرنى بفوزى فى اللغة الألمانية ، فـكان هذا تشجيعا لى وحفزا لهمتى ، فسرت فى الامتحان ، أو فى المحنة ، حتى آخرها ، بقلب طروب و يد ثابتة .

الفصل التاسع عشر

الامتحان

لما بدأت السنة الثانية فى مدرسة «جيلمان» كنت مليئة بالأمل ، صادقة العزم على الظفر بالنجاح ، ولـكن صعاباً عدة صادفتنى فى الأسابيع القليلة الأولى لم أكن أتوقعها ولم أحسب لها حسابا ؛ فقد سبق أن وافق المستر « جيلمان » أن يكون الحساب موضوع دراساتى الأساسية فى هذه السنة ؛ ولـكنى درست معه «الفيزيقا» ، والجبر ، والهندسة ، والفلك ، واللغة اليونانية ، واللغة اللاتينية كذلك . ولم يكن مع الأسف ، الـكثير من الـكتب التى أحتاج إليها فى دراستى ، قد طبعت بعد بالحروف البارزة فى الوقت الذى أبدأ فيه دراساتى فى الفصول مع الطالبات الأخريات ؛ ذلك إلى أن أجهزة هامة ضرورية لبعض دراساتى كانت تعوزنى . وكانت الفصول التى ألحقت بها كبيرة العدد ، جعلت من المستحيل على الأساتذة أن يعطونى دروساً خاصة بى ، فاضطرت الآنسة «صاليفان» أن تقرأ لى جميع الـكتب ،

وأن تترجم للمدرسين ؛ و بدا لى لأول مرة فى إحدى عشرة سنة أن يدها العزيزة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العبء الثقيل .

ولم يكن ثم مناص من أن أكتب الجبر ، والهندسة فى الفصل ، وأن أحل مسائل فى « الفيزيقا » ، ولم أكن أؤدى هذا كله إلا بعد أن أتزود بآلة كاتبة من طراز « براى » أتمكن بها من تدوين خطوات شغلى وعملياته ؛ كذلك لم أكن أستطيع أن أتابع بعينى الأشكال الهندسية المرسومة على السبورة أمامى .

وكانت وسيلتى الوحيدة للحصول على فكرة واضحة عنها أن أعملها ، على مخدة ، بأسلاك مستقيمة أو منحنية ذات أطراف محددة أو مثنية . وكان علىّ أن أعى فى عقلى ، كما يقول المستر « كايث » فى تقريره ، وضع الحروف على الأشكال ، فضلا عن الفرض والنتيجة ، والعمل وعملية البرهنة ذاتها . وقصارى القول ، كان لكل دراسة من دراساتى صعابها ومشقاتها ، فكنت أفقد أحيانا كل ما فىّ من شجاعة وأفضح وجدانى وانفعالاتي بشكل أخجل الآن من تذكره ؛ ولا سيما إن كانت مظاهر متاعبى تتخذ فيما بعد وسائل للنيل من الآنسة « صاليفان ، الشخص الوحيد من بين

جميع أصدقائى المحبين الذين كانوا لى هناك ، والذى يستطيع أن يجعل المعوج مستقيما ، والموضع الخشن ممهداً مسلوفا .

ومع هذا كله ، فقد أخذت متاعبى هذه التى كانت تؤودنى ، تزول شيئا فشيئاً . فوصلتنى الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ، كما وصلنى كثير من الأجهزة والأدوات ، فانهمكت فى عملى ، وكلى ثقة متجددة . فلم يكن غير الهندسة والجبر يتحديان ما أبذله من جهود لفهمهما . فليس لدى ، كما ذكرت من قبل ، أى ميل إلى الرياضيات ، فان موضوعاتها المختلفة لم تشرح لى الشرح الكامل الذى أنشده . وكانت الأشكال الهندسية تضايقنى بشكل خاص ، فلم أكن أستطيع أن أرى علاقة الأجزاء المختلفة بعضها ببعض ، ولا حتى بعد وضع الأشكال على المخدة ، ولم يحصل عندى فكرة واضحة عن الرياضيات إلا بعد أن جاء المستر « كايث » (Keith) وتولى تعليمى بنفسه .

وكنت على وشك أن أتغلب على كل ما فى سبيلى من صعاب وعراقيل لولا أن حادثا حدث فغير كل شىء و بدله .

وذلك أن المستر « جيلمان » كان قبل وصول الكتب قد

احتج على الآنسة «صاليفان» بأنى أرهق نفسى بالعمل الكثير؛ وعلى الرغم من اعتراضى الشديد على رأيه هذا، أنقص عدد الحصص المقررة لى. فقد كنا اتفقنا على أن أقضى خمس سنوات، إذا لزم الأمر، أتهيأ فيها للالتحاق بالكلية. ولكن نجاحى فى امتحانات السنة الأولى بين للآنسة «صاليفان» وللآنسة «هار باوخ» (Harbauch) المدرسة الأولى عند المستر جيلمان كما تبين كذلك لمدرسة أخرى ثالثة — أنى أستطيع أن أتم استعدادى للالتحاق بالكلية فى مدى سنتين اثنتين أخريين، من غير أن يكون فى ذلك أى إرهاق أو إعنات لى. ووافق المستر «جيلمان» على ذلك الأمر، ولكنه لما رأى أن أعمالى أصبحت تضايقنى بعض المضايقة، عاد إلى رأيه بأنى مرهقة، وكرر قوله هذا، وألحف فيه: ثم قرر أنه يجب أن أبقى فى مدرسته ثلاث سنوات أخرى. فلم تعجبنى خطته، ولكنى كنت قد عقدت العزم على الالتحاق بالكلية مع لداتى الفتيات اللواتى معى فى فصلى.

وفى السابع والعشرين من شهر نوفمبر لم تكن صحتى على ما أحبها أن تكون، فلم أتمكن من الذهاب إلى المدرسة. ومع أن الآنسة «صاليفان» كانت واثقة كل الثقة من أن مرضى ليس بالخطير فقد أعلن

المستر «جيلمان» على أثر سماعه بمرضى هذا أنى على وشك الانهيار ؛ ثم أحدث تعديلات فى نظام الدراسة جعل من المستحيل علىّ أن أتمها وأتقدم للامتحان النهـائى مع بنات فصلى . وأخيراً فضت أمى هذه المشكلة . التى قامت بين المستر «جيلمان» والآنسة «آن صاليفان» بأن منعتنى وأختى «ميلدريد» من الدراسة فى مدرسة «كمبريدج» .

و بعد شىء من التأخير، تمّ اتفاقنا على متابعة دراستى على يدى مـدرس خاص ، هو المستر «مرتون كايث (Keith) المـدرس بمدرسة «كمبريدج» نفسها . فقضيت ما يتبقى من فصل الشتاء مع الآنسة «صاليفان» فى بلدة (رنتام) (W Rentham) على بعد ثمانى كيلو مترات من مـدينة بوسطن عند أصدقائنا من آل (تشمبرلين) .

وظل المستر (كايث) يحضر إلى رنتام مرتين كل أسبوع ، من فبراير إلى يولية ١٨٩٨ ، يدرس لى الجبر والهندسة واللغتين اليونانية واللاتينية . وكانت الآنسة «صاليفان» تترجم لى دروسه التى يلقيها علىّ .

وفى أكتوبر ١٨٩٩ عدنا إلى «بوسـطن» وظل المستر

« كايث » يدرس لى ثمانية شهور ، خمس مرات في الأسبوع ، كل درس يستغرق ساعة كاملة ؛ وكان يشرح لى فى كل درس مالم أكن قد فهمته فى الدرس الذى سبقه ؛ ثم يعين لى درسا جديداً . وكان ثم يأخذ معه التمرينات اليونانية ، التى كتبتها فى خلال الأسبوع على الآلة الكاتبة ، ليصلحها بعناية و يعيدها إلى مصححة .

وهكذا سار إعدادى للالتحاق بالكلية سيرا موصولا لا تعطيل فيه ؛ وكان أسهل علىّ وأمتع لى أن أتعلم بنفسى و بجهدى وحده ، من أن أتلقى التعليم فى الفصل مع البنات الأخريات . فلم يكن هناك عجلة ولا اضطراب ؛ فلدى أستاذى الوقت الكافى ليشرح لى مالم أكن قد فهمته . و بهذا تقدمت بخطى أوسع وأسرع مما كنت أتقدم وأنا فى المدرسة ، و إن كنت ما زلت أصادف صعابا جمة فى فهم مسائل الرياضة أشد مما كنت أصادفه فيها فى أى وقت آخر . و إنى لأتمنى لو كانت مادتا الهندسة والجبر سهلتين علىّ نصف سهولة اللغات والأدب ! ومع ذلك كان المستر « كايث » يجعل كل شىء ، حتى الرياضة نفسها ، شائقاً جذاباً لى. فقد كان موفقا كل التوفيق فى تبسيط المسائل تبسيطا يجعلها تدخل عقلى فى يسر وسهولة ، كما

استطاع أن يجعل عقلى يقظا نشيطـا متحمساً، ودرّبه على حسن الاستدلال ووضوحه ، وعلى أن يبحث عن النتائج فى منطق وتأن، بدلا من أن يقفز اليها فى الفراغ فلا يصل إلى شىء ما . وكان المستر « كايث » ظريفا ، لبقا معى دائما، حليما علىّ ، مهما كانت غباوتى ، وأؤكد للقارىء أن غباوتى كانت تبلغ حدا يستنفد صبر أيوب نفسه .

ثم فى اليومين التاسع والعشرين والثلاثين من شهر يوليه سنة ١٨٩٩ تقدمتُ للامتحان النهائى لـكلية « رادكليف » . ففى اليوم الأول امتحنونى فى مبادىء اللغة الإغريقية ، وفى اللاتينية الراقية ، وامتحنت فى اليوم الثانى فى الهندسة والجبر واللغة اليونانية الراقية .

ولم يسـمح أولو الأمر فى الكلية للآنسة« صاليفان » بأن تقرأ لى أوراق الامتحان ، ولـكنهم استخدموا المستر يوجين فايننج (Eugene Vining) ، أحد المدرسين بمعهد بركنز للعميان ، لينقل الأوراق إلى طريقة « براى » الأمريكية . وكان المستر فايننج هذا غريباً عنى ، لا يستطيع أن يتفاهم معى و يتصل بى إلاّ عن طريق الـكتابة « بالبراى » . وكذلك كان الضابط غريباً علىّ أيضاً ، فلم يحاول هو الآخر أن يتصل بى بأى شكل من الأشكال .

نعم أدّى « البراى » الغرض المقصود منه فى اللغات ، ولـكن عندما جاء دور الهندسة والجبر قامت فى وجهى صعاب كثيرة تبلبل لها فـكرى واضطرب خاطرى اضطراباً كبيراً، وشعرت بخور فى همتى و بضياع الوقت الثمين سُدى، ولا سيما فى مادة الجبر . ومع أنى كنت ملمة بكل طراز أدبىّ من طرز « البراى » المستعملة فى هذه البلاد : « الإنجلـيزى » و « الأمريكى » و « النيو يورك بو ينت » ، فان العلامات الـكثيرة والرموز المنوعة المستعملة فى الهندسة والجبر من الطرز الثلاثة مختلفة أيما اختلاف ، وكنت لا أستعمل فى الجبر غير « البراى » الإنجليزى .

وقبل أن يحل موعد الامتحان بيومين أرسل إلىّ المستر فاينج نسخة من أوراق أسـئلة « هارفارد » القديمة فى الجبر مطبوعة «بالبراى» . ولسوء حظى ، وجدتها مطبوعة على الطراز الأمريكى ؛ فسارعت وكتبت إلى المستر فاينج فى الحال راجية منه أن يشرح لى هذه الرموز ، فوصلتنى بعودة البريد ورقة أخرى ، وجدول بالرموز ، فعكفت على حفظ العلامات . ولـكن فى الليلة السابقة على امتحان الجبر ، بينما أنا أجاهد فى حل بعض المسائل المعقدة ، لم أستطع أن أميز

بين أنواع الأقواس المختلفة فتألم المستر « كايث » وتألمت معه ، واستولى على كلينا التشاؤم فيما يتعلق بما سيجىء به الغد . ومع ذلك مضينا إلى الكلية قبل أن يبدأ الامتحان بقليل ، وطلبنا من المستر فاينمنج أن يشرح لى الرموز الأمريكية بصورة أتم وأوفى ، ففعل .

وكانت أشق عقبة صادفتنى فى الهندسه أنى تعودت أن أقرأ النظرية مكتوبة ، أو أن تُهجَّى لى فى يدى ؛ ولسبب ما — مع أن النظرية كانت أمامى فعلا ، وجدت نظام (البراى) يدعو إلى الحيرة والارتباك ؛ ولم يكن فى استطاعتى أن أعى فى عقلى ما كنتُ أقرؤه . فالرموز التى تعلمتها حديثاً ، والتى كنت أظن أنى ألممت بها وأتقنتها كانت لا تزال تحيّرنى .. وزيادة على ذلك لم أستطع أن أرى ما كتبتُه على الآلة الكاتبة ، إذ كنت أؤدى عملى بطريقة (البراى) أو أنجزه فى رأسى ، وكان المستر « كايث » قد اعتمد أكثر مما يجب على مقدرتى على حل المسائل فى عقلى ، فلم يدربنى على الإجابة عن أسئلة الامتحانات . وترتب على ذلك أن كان عملى فى الامتحان بطيئاً بطئاً مؤلماً حقاً ، وكان علىّ أن أقرأ المسائل المرة بعد المرة قبل أن أكوّن فكرة عن المطلوب منى

فيها . والحق أنى لم أكن واثقة كل الثقـة من أني قرأت الرموز جميعها قراءة صحيحة ؛ فقد كان من العسير علىّ أن أحتفظ بكل قواى العقلية احتفاظاً يسعفنى و يحقق لى غرضى .

ولست مع ذلك كله أوجه لوماً إلى أحد . فما كان أعضاء مجلس إدارة « رادكليف » يستطيعون أن يدركوا إلى أى حد كانوا يعملون على جعل امتحانى شاقاً مرهقاً؛ ولم يفهموا الصعاب والعقبات الخاصة التى تتكاءدنى ، والتى علىّ أن أتغلب عليهـا بشكل ما . فإن أقاموا عن غير قصد منهم العراقيل فى سبيلى ، فعزائى أنى تغلبت عليها كلها وقهرتها جميعا .

الفصل العشرون

الحياة فى كلية رادكليف

تكلل جهادى فى سبيل الالتحاق بالكلية بالنجاح، وصار لى الحق فى دخول كليـة « راد كليف » متى شئت . ومع ذلك ، فقبل أن أدخل الـكلية ، رؤى أن الأولى بى أن أدرس سنة أخرى على يد المستر « كايث » Keith وعلى هذا لم يتحقق حلمى ولم ألتحق بالكلية إلا فى خريف سنة ١٩٠٠ .

وأنى لأذكر أول يوم لى فى «راد كليف» حق الذكر ، فقد كان يوما حافلا بالكثير مما يهمنى وكنت أتوق اليه وأتطلع من سنوات عدة الى تحقيقه ؛ فان قوة عظيمة فى نفسى — أعظم من رجوات أصدقائى وقدراتهم على الاقناع ، وأقوى من نوازع قلبى نفسه — كانت تدفعنى إلى أن أجرب قوتى بحسب معايير غيرى ممن يرون ويسمعون ؛ وكنت أعرف أن طريقى لايخلو من عقبات ، ولكنى كنت تواقة إلى التغلب عليها ، فقد تشبعت من قبل بقول ذلك

الرومانى الحكيم الذى قال : « ليس النفى عن رومية سوى أنك تعيش خارج رومية » . و إذ كانت الطريق العامة الكبرى التى تؤدى إلى العلم موصدة فى وجهى ، اضطررت أن أسلك طرقا أخرى طويلة وملتوية — وهذا كل ما فى الأمر ؛ ذلك إلى أنى كنت أعرف أن فى الكلية طرقا جانبية شتى تيسر لى أن أتصل بالبنات اللواتى يفكرن و يحببن و يجاهدن مثل ما أفكر وأحب وأجاهد .

وأقبلت على الدراسة بجد وتلهف ، فرأيت عالما جديدا ينفتح أمامى — عالما كله نور وجمال . وشعرت بأن فى نفسى قدرة على معرفة الأشياء جميعها . وانى أستطيع أن أكون حرة فى دنيا العقل العجيبة ، حرية أى انسان آخر ؛ فأهلها ، ومناظرها ، وآدابها ، ومسراتها ، ومآسيها ينبغى أن تكون كلها حية ملموسة ، تترجم عن عالم الحقيقة وتعبّر عنه ؛ و بدت لى أبهاء المحاضرات حافلة بأرواح العظماء والحكماء ، وخيل إلى أن الأساتذة هم الحكمة نفسها مجسمة . فان كنت قد تعلمت اليوم أن الأمر خلاف ذلك فلن أبوح به لأحد .

فسرعان ما استكشفتُ أن « الكلية » ليست ذلك المعهد

«الرومانسى» الجميل الذى تخيلته، فان كثيراً من الأحلام والرؤى التى كانت تبهج غرتى، وتضىء عدم خبرتى فى صغرى ، ظلت تضعف شيئاً فشيئاً وتتضاءل حتى حال لونها وتغير ودخلت فى ضوء الأيام العادية المألوفة . وتدريجيا أدركت أن الالتحاق بالجامعة ليس خيرا ، كله فهو لا يخلو من متاعب ومن عيوب .

وأكبر عيب شعرت به أكثر من غيره — وما زلت أشعر به إلى اليوم — ضيق الوقت . فقد اعتدت أن يكون لدىّ الوقت فسيحاً لأفكر وأتأمل — أنا وعقلى . فنجلس فى المساء معا نصغى إلى أنغام الروح الباطنية التى لا نسمعها عادة إلا فى لحظات الفراغ ، وعندما تمس ألفاظ شاعر محبوب وعباراته وتراً حلوا عميقا من أوتار الروح ،لم يسبق أن نقر عليه أحدحتى هذه اللحظة . أما فى الكلية فليس ثمة وقت يخلو فيه المرء بأفكاره ؛ و يبدو لى أنا إنما نذهب اليها لنتعلم لا لنفكر . فعندما يلج الواحد منا أبواب دور العلم يترك وراءه أعز مسراته وأحبها اليه : الوحدة والكتب والخيال — يتركها كلها خارج الأبواب مع أشجار الصنوبر الهامسة ؛وأظن أنى أنما أدخر ذخائر لاستمتع بها فى المستقبل : آه ولكنى قصيرة النظر،

قليلة التدبير؛ أفضِّل السرور العاجل على ادخار الأموال واكتنازها ليوم الشدة والضيق.

درست فى السنة الأولى من الكلية اللغتين الفرنسية والألمانية والتاريخ والانشاء الانجليزى، والأدب الانجليزى. وقرأت بالفرنسية بضع مؤلفات لكرنى [1] Corneille و راسين [2] Racine وألفرد دو «موسيه» [3] Alfred De Musset وسانت

---

(١) «بيار كونى» ١٦٠٦ — ١٦٨٤ كاتب من كبار الكتاب الفرنسيين فى القرن السابع عشر. وهو مؤلف «السيد» و «هوارس» وغيرهما من المسرحيات التراجيدية. ويعد أبا لكتابها، ويتميز شعره بتصوير الناس كما يجب أن يكونوا لا على ماهم عليه.

(٢) جان راسين (١٦٤٩ — ١٦٩٩) مؤلف فرنسى مسرحى، ومؤرخ. كانت أولى مسرحياته التراجيدية La Thebaide وقد مثلتها فرقة موليير، ثم تلتها مسرحيات أخرى، منها مسرحية «أثالى» التى نشرت سنة وفاته والتى تشير إليها هيلين كيلر فى النص.

(٣) الفريد دوموسّيه (١٨١٠ — ١٨٩٥) شاعر فرنسى ومؤلف مسرحى درس الطب والقانون ولكنه تفرغ للادب وكان صديقا لفكتور هوجو ومن أشهر كتبه Les Nuits Les confessions d'un Enfant du Siecle.

بيف[1] Sainte Beuve

وقرأت بالألمانيـة مؤلفـات لجوته[2] Goethe وشـيلر[3]

واطلعت فى اجمال على حقبة التاريخ من سقوط الامـــبراطورية

---

(١) سانت بيف (١٨٠٤ — ١٨٦٩) أديب فرنسى من كتاب المقالات . اشتغل بالصحافة ثم تعين فى عدة مناصب منها مكتبة مازاران ، واستاذا للادب فى الكليج دوفرانس وانتخب عضوا فى الأكاديمية سنة ١٨٤٢ ومن كتبه المعروفة « أحاديث الاثنين » .

(٥) جوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) أديب ألمانى عالمىّ — شاعر وسياسى وفيلسوف ، وهو أكبر شعراء الألمان . احتفل العالم بمرور مائة سنة على ميلاده سنة ١٨٤٩ . ومن أهم كتبه «فاوست» الذى استغرقت كتابته (على فترات) أكثر من ثلاثين عاما وقد ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عوض محمد بك ونشرته لجنة التأليف .

(٦) شيلر ١٧٥٩ — ١٨٠٥ شاعر ألمانى ومؤلف مسرحى ، ومؤرخ وفيلسوف .

درس الطب ثم اشتغل بالأدب والتاريخ والمسرح والفلسفة . أول مسرحية له كانت Die Rauber التى كان لها الأثر العميق فى القرن التاسع عشر وهو مؤلف مسرحية فيللم تل سنة ١٨٠٤

الرومانية حتى القرن الثامن عشر . أما فى الأدب الانجليزى فدرست أشعار «ملتن»[1] (Milton) والأريوباجتيكا[1] Areopa getica دراسة نقدية .

كثيراً ما سألنى الناس عن الوسائل التى تذرعت بها للتغلب على أحوالى الخاصة فى الكلية . إنى أكاد أكون فى فصل الدراسة وحيدة ؛ فالأستاذ بعيد عنى كل البعد ، فيخيل إلىّ ، وهو يحاضر ، كأنما يتحدث فى التليفون . وكانت المحاضرة تُهجَّى لى فى يدى بأكثر سرعة ممكنة ، فيضيع علىّ الكثير من شخصية المحاضر وميزاته الخاصة ، فيما أبذله من جهود حتى لا أتخلّف فى حلبة السباق عن أقرانى من الطلبة . فتمرّ الألفاظ فى يدى مندفعة كأنها كلاب صيد تطارد أرنباً ، كثيراً ما يتفاداها و يفلت منها . على أنى لست بذلك أسوأ حظاً من غيرى من البنات اللواتى يدوِّنَّ مذكرات عما يُلقى عليهن فى المحاضرة . فمتى كان العقل مشغولا بالنواحى الآلية للسمع ،

---

(١) ملتن — ١٦٠٨ — ١٦٧٤ الشاعر الإنجليزى المشهور مؤلف «الفردوس المفقود» سنة ١٦٦٧ . و «الأريوباجتيكا» هذه رسالة له يدافع بها عن حرية الصحافة ، نشرها سنة ١٦٤٤ .

وبكتابة الألفاظ فى الصحائف بسرعة مضطربة ، لم يستطع ، فى رأيى ، أن يُولى مادة الموضوع الذى هو بصدده ، ولا الطريقة التى يُعرض بها هذا الموضوع ، كثيراً من انتباهه . فأنا لا أستطيع أن أكتب مذكرات فى أثناء المحاضرة ، لأن يدىّ مشغولتان بالإصغاء. ومع ذلك اعتدت أن أدوّن ما أذكره من المحاضرات التى تلقيتها فى الكلية ، عندما أعود إلى بيتى . وكنت أؤدى التمرينات ، وأنجز الموضوعات اليومية ، ونقاط النقد ، والاختبارات اليومية ، وامتحانات نصف السنة ، والامتحانات النهائية — كنت أكتبها كلها على الآلة الكاتبة ، وبذلك لا يجد الأساتذة أية مشقة فى الوقوف على قلة بضاعتى وضآلة ما أعرفه من المعلومات . ولما شرعت أدرس العَروض اللاّتينى وضعتُ لأستاذى نظاماً خاصاً من العلامات والرموز وشرحته له بشكل يبين الأوزان المختلفة واضحة .

واستعمل فى الكتابة آلة (هاموند الكاتبة) ، فبعد أن جربت آلات عدة وجدتُ هذه الآلة خيرها وأنسب لحاجة عملى الخاصة . فبها يتسنى لى أن أستعمل (مكاكيك) من الحروف المتحركة ، ومن الميسور أن يكون عندى عدد منها — يونانية ، أو فرنسية ،

أو رياضية بحسب نوع الكتابة التي أريد أن أدونها على الآلة. فلولا هذه الآلة لما استطعت أن ألتحق بالجامعة وأتابع الدراسة فيها.

لم يطبع من الكتب المقررة علينا في المواد المختلفة بالشكل الملائم لفاقدي البصر سوى عدد قليل. ولذا كنت مضطرة أن أطلب أن تهجَّى لي الكتب في يدي، مما كان يستغرق مني وقتاً أطول مما تحتاج إليه زميلاتي الأُخريات البصيرات. فالناحية اليدوية تقتضيني وقتاً أطول؛ فثم أشياء كثيرة تربكني وتعطلني ولا تأثير لها عندهن. وقد مرت بي أيام تضايقت فيها من ضرورة حصر انتباهي في التفصيلات حصراً دقيقاً؛ وكانت فكرة أني مضطرة إلى إنفاق الساعات الطوال في قراءة بضعة فصول، على حين زميلاتي الأخريات اللواتي في العالم الخارجي يُغنين ويرقصن — هذه الفكرة كانت إذا ما خطرت ببالي، تدفعني إلى أن أثور وأتمرد.. ولكني لا ألبث حتى أستعيد اتزاني ونشاطي، فأظل أضحك حتى أزيل هذا التسخط وأبعده عن نفسي. ومهما كان الأمر فإن على من يريد أن يحصّل المعارف الحقيقية أن يرقى جبل الصعاب وحده؛ وإذ لا توجد طريق سلطانية توصلني إلى الذروة كان عليّ أن أسلك

طريقاً متعرجة تتثنى يمنة ويسرة ؛ وتارة أنزلق فأرجع إلى الوراء مرات عدة ؛ وتارة أقع ، وأقف جامدة ، وأجرى فأصطدم بحافات صعاب وعقبات غير مرئية ، لم أكن قد حسبت لها حساباً من قبل . وقد يتولانى الغضب ، فأثور ثم أهدأ ، وأعود إلى اتزانى ؛ وأضبط نفسى ، ثم أدلف فى طريقى ، وأتقدم فيه بعض التقدم ، فأتشجع ، وترهف همتى وتزداد حماستى ، فأصعّد فى الجبل ، وأبدأ أرى الأفق يتسع أمامى شيئاً فشيئاً . فكل مجاهدة ظفر وانتصار ؛ ولم يبق لى إلاّ أن أبذل جهداً آخر فأبلغ السحب المشرقة ، وأشاهد أجواز السماء الزرق ، فأصل إلى ضالتى التى أنشدها . ومع ذلك لم أكن دائماً وحدى فى هذا الصراع وفى تلك الجهود ، فقد كان المستر (وليام ويد) William Wade والمستر (ألن) E.E. ALLen مدير معهد « بنسلفانيا » لتعليم العميان يحصلان لى على كثير مما افتقر إليه من الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ؛ فنى حسن اهتمامهما بشأنى وتشجيعهما لى ، أكثر مما يمكن أن يعرفاه فى يوم من الأيام .

وفى السنة الماضية ، وهى سنتى الثانية فى « رادكليف » ، درست الأنشاء الإنجليزى ، والإنجيل من حيث هو كتاب أدب ، ودرست

نظـــام الحـكم فى أمريكا وأوروبا ، وأغانى « هوراس »[1] والـكوميديا اللاتينية . وكان الإنشاء الانجليزى أحب الدروس كلها إلىّ ، فقد كان حافلا بالحياة ، وكانت المحاضرات رائعة جذابة وحية مليئة بالملح والطرائف . فـكان المستر « تشارلس ثاونسند كبلاند Townsend Copeland Charles » أكثر من تلقيت عليه الدروس حتى هذه السنة ، وكان يقدم الينا الأدب بكل ما فيه من نضارة وقوة أصيلة. ففى ساعة واحدة قصيرة تتاح لك فرص عدة كى تنهل مما فى كتابات فحول الأدب من جمال خالد ، من غير أن تشعر بحاجة إلى شروح لا طائل تحتها ،ومن غيرضرورة إلىعرض أو تفسير ، فتطرب بما لهؤلاء الفحول من أفكار رائعة ، وتستمتع كل الاستمتاع بما فى « العهد الجديد » من رعد عذب ، وتنسى وجود يهوه[2] و إلوهيم[2] ، وأخيرا تعود إلى بيتك شاعرا بأنك قد حصلت على لمحـــة من الـكمال الذى تنسجم فيه الروح والصورة

---

(١) كونتيوس ، هوراشيوس فلاكوس (٦٥ — ٨ قبل الميلاد) شاعر رومانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد له أشعار غنائية فضلا عما له من رسائل منظومة ومسرحيات يسخر فيها من أحوال عصره .

(٢) إله بنىإسرائيل .

انسجاما خالدا لا يفنى . فالحق والجمالى يثمران ثمرا جديداعلى جذع شجرة الزمن القديم .

كانت هذه السنة أسعد سنواتى ، فقد كنت أدرس فيها مواد لها أهمية خاصة بى — فدرست الاقتصاد ، والأدب فى عصر اليصابات ، ودرست شكسبير على يد الأستاذ كتريدج George L Ketteridge ودرست تاريخ الفلسفة على الأستاذ « جوسيارويس »[1] (Goucai Royce وعن طريق الفلسفة يستطيع الأنسان أن يتصل بمأثورات العصور السالفة ، ويدرس تقاليدها وسائر طرق تفكيرها بشيء من العطف والتسامح — تلك التى كانت من قبل تبدو غريبة عنك ولا معنى لدراستها .

ولكن الكلية لم تكن مع ذلك « أثينا » العالمية التى ظننتها أن تكون ؛ فأنت لا تصادف فيها العظماء والحكماء وتقابلهم وجها لوجه ، ولا أنت تحس لمستهم الحية .

---

(١) «جوسيارويس» فيلسوف أمريكى معروف ١٨٥٥ — ١٩١٦ . وكان أستاذا للفلسفة فى جامعة هارفارد منذ سنة ١٨٩٢ وله مؤلفات فلسفية كثيرة تمتاز بالوضوح والدقة وجمال الأسلوب والعرض .

نعم إنهم موجودون فى الجـامعة فذلك حق لا نزاع فيـه . ولـكنهم لا يبدون لنا إلا محنطين ، وعلينا نحن أن نستخرجهم من ثنايا جدران المعرفة و نشرحهم ونحللهم قبل أن نتأ كد من أن الذى أمامنا هو ملتن أو إشعيا ، وليس تقليداً محكما له . و يبدو لى أن استمتاعنا بكتب الأدب يتوقف على عمق عاطفتنا ، أ كثر ممـا يتوقف على فهمنا ، وحدة إدرا كنا . والصعو بة هى أن قليلا جدا من شروحهم التى أرهقوا فيها أنفسهم وكلفتهم كثيرا من التعب والجهد يعلق بالذا كرة . فالعقل يأباها و يرفضها كما يطرح فرع الشجرة نضج من ثمارها نضوجا أ كثر مما ينبغى فمن الجائز أن تعرف زهرة ما وتصرف جذرها وساقها وكل عمليات نموها ، ومع ذلك لا نستطيع أن تقدر هذه الزهرة الناضرة قدرها وقد غمرها طل السماء . وكثيرا ما سألت نفسى وقد نفد صبرى : لمَ أرهق نفسى بهذه الشروح وتلك النظريات والفروض ؟ فهى تمر بخواطرى هنا وهناك أشـبه ما تكون بالطير تضرب الهواء بأجنحتها من غير جدوى . ولست أقصد بذلك أن أعترض على دراسة المؤلفات الرائعة دراسة مستفيضة كاملة لا ! و إنما أعترض على تلك الشروح والتعليقات التى لا حد لها ولا نهاية وعلى

تلك الانتقادات التي لا تعلّمنا سوى شيء واحد ؛ تعلمنا أنه توجد آراء بعدد ما يوجد من الناس . ولكن عندما يشرح عالم عظيم مثل الأستاذ « كتريدرج » أقوال المؤلف الكبير كان ذلك أشبه ببصر جديد أفيض على من لا يبصرون . فهو يحيي لك شكسبير الشاعر و يكسوه لحما ودما .

ومع ذلك فثم أوقات تمنيت فيها لو انى أطحتُ ببعض الأشياء التي ينتظر مني أن أعرفها وقتئذ وألقيت بها ظهريا . فالعقل المثقل المرهق لا يستطيع أن يقرأ في يوم واحد أربعة كتب أو خمسة بلغات مختلفة ، تعالج موضوعات شتى متباينة كل التباين ، من غير أن يضيع عليه الغرض الذى وضعه نصب عينيه . فعندما يقرأ الانسان في سرعة واضطراب ،وأمامه امتحانات واختبارات تجريبية ،يصبح عقله مثقلا بأمشاج من أمور عتيقة يبدو له أن لا طائل تحتها ولا جدوى منها . فعقلي ملىء الآن بمواد ومعلومات منوعة متباينة أكاد أيأس من أنى سأستطيع في يوم من الأيام أن أنسقها وأنظمها . فعندما أدخل دولة عقلي أشعر بأنى أشبه ما أكون بذلك الثور المشهور في الأمثال ، الذى دخل متجرا للأوعية الخزفية ، فتتدافع إلى عقلي قطع شتى من المعرفة ،

وتصطدم به كأنها قطع من البرد تتساقط بعنف وشدة ؛ وكلما حاولت أن أفلت منها تبعتنى الموضوعات الانشائية ، ولحقتنى الواجبات التى تفرضها علينا الكلية؛ وأزعجتنى كل ازعاج،حتى صرت أتمنى لو اننى لم أطمح إلى ذلك المطمح الخبيث — وأقول ليتنى أحطم تلك الأصنام التى اتخذتها لى آلهة أعبدها .

أما الامتحانات فكانت أكبر « غول » مزعج لى فى حياتى فى الكلية . ومع أنى واجهتها مرات عدة ، وتغلبت عليها وقهرتها حتى جعلتها تعض تراب الأرض ، فإنها كانت مع ذلك تعود وتنهض وتهددنى بنظراتها الصفراء ، حتى أشعر بشجاعتى تنسال من أطراف أصابعى كما انسالت من أنامل « بوب إيكرز » من قبل . فلا يخفى أنك تقضى الأيام التى تسبق مواعيد هذه المحن فى حشو العقل بقوانين خفية غامضة ، وتواريخ جافة لا يمكن أن تهضم ؛ وفى أمور لا تستساغ حتى لتتمنى لو ان الكتب والعلوم كلها ، وأنت نفسك معها ، وقعت كلها فى قاع أليم .

وأخيراً تحل الساعات الرهيبة . وأنك لسعيد حقاً إن شعرت بأنك مستعد كل الاستعداد ، فتستطيع أن تستدعى إلى ذاكرتك الأفكار التى تسعفك ، فى أثناء ما تكون مشغولا ببذل هذا المجهود

الـكبير . وكثيراً ما يحدث أن استدعاءك للأفكار هذا لا يصادف استجابة ما . فمما يغيظ كل الغيظ ، ويحيّر كل الحيرة ، أن تجد فى هذه اللحظة نفسها التى تكون فيها بحاجة ماسة إلى ذاكرتك ، وإلى حاسة دقيقة مرهفة تجعلك تميز بين شتى الأشياء — أن تجد هاتين القُدرتين قد اتخذتا لهما أجنحة ، وطارتا عنك . فتخونك الحقائق التى ظللت تجمعها بهذا التعب المضنى ، وتخذلك دائماً وقت الحاجة إليها .

« اكتب بالإيجاز عن «هوس»[1] وأعماله . هوس! من هو ؟ وماذا صنع ؟ إن هذا الاسم يبدو معهوداً لك إلى حد كبير ، ومع ذلك فأنت تبحث فى محصولك عن الحقائق التاريخية ، كما تبحث عن قطعة من الحرير وسط جوالق ملىء بالخرق . أنك لواثق أن « هوس » فى ناحية من نواحى عقلك ، عند القمة — فقد رأيته هناك فى ذاك اليوم عندما كنت تبحث عن بداية عهد « الإصلاح الدينى» . ولكن أين هو الآن؟ فتتسقط أشتاتا من أمشاج المعلومات:

---

(١) جون هوس (١٣٧٣ — ١٤١٣) مصلح دينى من بوهيميا تعلم فى جامعة براها وأصبح مديرا لها سنة ١٨٠٤ ، وهاجم مساوئ الـكنيسة ، فحكموا عليه بالطرد منها ، ثم أعدموه حرقا سنة ١٤١٣

ثورات ، وخلافات وانشقاقات ، ومذابح ونُظُم حكم . ولكن هوس ! أين هو ؟ و إنك لتدهش من كثرة الأشياء التى تعرفها والتى لا تتطلبها الإجابة عن أسئلة هذا الامتحان ؛ وقد يبلغ بك اليأس كل مبلغ فتلقى كل شىء فى عقلك من غير نظام ، فإذا بك تجد «هوس» هذا قابعاً فى زاوية من زوايا عقلك يتأمل فى هدوء فى آرائه وأفكاره هو الخاصة به، غير آبه للكارثة التى جرّها عليك .

وفى هذه اللحظة نفسها ينبهك «الضابط» أن الوقت المخصص للامتحان قد انتهى . فيبلغ بك النفور والتقزز مبلغاً عظيما ، يدفعك إلى أن تدع كل هذه الكتلة من القمامة فى زاوية ما ، وتعود إلى بيتك ورأسك مملوء بخطط ثورية عنيفة ، لتعمل على إلغاء ذلك الحق الإلهى الذى للأساتذة فى أن يسألوا أسئلة من غير موافقة المسئولين .

لم أنس أنى لجأت فى الصفحتين أو الثلاث صفحات الأخيرة من هذا الفصل إلى استعارات ومجازات تجعل القراء يضحكون منى و يسخرون . آه ! هاهى ذى الاستعارة المعقدة تهزأ بى ، وتخطر أمامى ، مشيرة إلى الثور فى محل تجارة الأوعية الخزفية الذى هاجمه البَرَد ، و « الكوابيس » المخيفة بوجوهها المتقعة الكالحة . إنها لنوع

يعسر تحليله ؛ فليسخروا منى ما شاءوا أن يسخروا ؛ فهذه الألفاظ تصف أدق وصف جوَّ الأفكار المتزاحمة المتدافعة ، الذى أعيش فيه ؛ و إنى لأغض النظر عنها هذه المرة ثم أعود وأتخذ قصداً موقفا آخر ، وأقول إن آرائى عن الكلية قد تغيرت .

ولما كانت أيامى فى «رادكليف»[1] لا تزال فى علم الغيب ، فقد أحيطت بهالة من القصص والخيال زالت عنها فيما بعد . ولكنى ، عند انتقالى من الخيال إلى الحقيقة والواقع ، تعلمت أموراً كثيرة ما كنت لأعلمها لو لم أحاول هذه التجربة . وكان من بين هذه الأمور التى تعلمتها علم الصبر ؛ وهو علم ثمين قيم يعلمنا أنا يجب أن ننظر إلى تربيتنا وتعليمنا كما ننظر إلى نزهة فى الريف ؛ فنسير سيراً وئيداً على مهل وعقولنا مفتوحة تستقبل فى سماحة وكرم شتى الانطباعات أياً كان نوعها . فمثل هذه المعرفة تغمر الروح غير المرئيـة بموجة مدّ صامتة من أمواج الفكر المتزايد فى العمق و بعد الغور . إنهم يقولون إن العلم قوة ، والأولى بهم أن يقولوا إن العلم سعادة : لأنا بحصولنا على المعرفة — المعرفة

---

(١) كلية راد كليف — كلية للبنات ملحقة بجامعة هارفارد بمدينة بوسطن تأسست سنة ١٨٧٩ .

العميقة الواسعة — ندرك الحق من الباطل ، ونميز السامى من الوضيع
لسف . فالوقوف على الأفكار والأفعال التى كانت معالم لترقى
الإنسان وتقدمه فى سبيل الحضـــارة ، يجعلك تشعر بنبضات قلب
الإنسانية القوية العنيفة عبر الأجيال التى مرت بها . فإن كان الإنسان
هنا لا يستطيع أن يشعر بما فى هذه النبضات من مجاهدة ومحاولات
فى سبيل العلى ، فهو لا شك أصم ، لا يسمع ما فى الحياة من توافق
وانسجام .

الفصل الحادى والعشرون

كتب قرأتها

ذكرتُ لك فى إجمال ما جرى فى حياتى إلى الآن من أحداث، ولكنى لم أبين مدى اعتمادى على الكتب ، لا من حيث السرور ، ولا من حيث الحكمة التى تيسرها لكل من يقرأ فحسب ، ولكن كذلك من حيث المعرفة التى تصل إلى الآخرين عن طريق عيونهم وآذانهم . والحق أن للكتب شأناً أى شأن فى تربيتى أكثر مما لها فى تربية غيرى، ولذا يجب أن أرجع أدراجى إلى الوقت الذى شرعت فيه أن أقرأ .

كانت أول قصة موصولة قرأتها فى شهر مايو سنة ١٨٨٧ ، وأنا فى السابعة من عمرى ؛ ومنذ ذلك اليوم وأنا ألتهم كل شىء يقع فى متناول أصابعى المتعطشة فى شكل صحيفة مطبوعة . فكما سبق أن قلت ، انى لم أكن أدرس بانتظام فى الأيام الأولى من تعلمى ، ولم أقرأ بحسب نظام معين أو خطة مرسومة .

ولم يكن عندى فى أول الأمر سوى بضع كتب مطبوعة بالحروف البارزة ، وهى كتب مطالعة للمبتدئين ، ومجموعة قصص للاطفال ، وكتاب عن الأرض اسمه « دنيانا » Our World وأظن أن هذا كل ما كان عندى ، ولكنى قرأت هذه الكتب كلها المرة بعد المرة حتى انطمست ألفاظها ولم أعد أتبينها . وكانت الآنسة « صاليفان » تقرأ لى أحيانا ، فتتهجى فى يدى أقاصيص قصارا ، وأشعارا مما تعرف أنى أستطيع أن أدرك معناها. على أنى كنت أفضل أن أقرأ بنفسى ، على أن يقرأ لى أحد . إذ أحب أن أعيد قراءة ما يلذ لى وأرجع اليه المرة بعد المرة .

بدأت القراءة الجدية منذ زيارتى الأولى لمدينة بوسطن ؛ عندما سمح لى بأن أقرأ فترة معينة كل يوم فى مكتبة المعهد وأتنقل من خزانة كتب إلى أخرى، وأن أخرج أى كتاب تقع عليه أناملى. وأؤكد لك أنى كنت أقرأ ، سواء فهمت كلمة واحدة من كل عشر كلمات ، أو كلمتين اثنتين فى الصفحة الواحدة . فقد كانت الألفاظ نفسها تسترعينى وتفتننى، ولكنى لم أكن أحسب أى حساب لما أقرؤه ، ومع ذلك فلا بد أن عقلى كان ، فى تلك الحقبة من حياتى ، غضًّا

سريع التأثر لأنه وعى ألفاظاوعبارات كثيرة ؛ وكانت هذه الألفاظ، وتلك العبارات تسنح لى وتعن بشكل طبيعى وأنا أتكلم أوأكتب حتى كان أصدقائى يعجبون كل العجب من ثروتى اللفظية الحافلة ؛ فلا بد أن أكون قد قرأت فقرات عدة من كتب كثيرة (فاظى لم أقرأ كتابا واحداً كاملا فى تلك الأيام الأولى) ومقداراً عظيما من الشعر بتلك الطريقة التى لا تفهم ؛ وظللت على ذلك إلى أن وقعت على كتاب لورد فنتليروى الصغير Little Lord Fontleroy الذى كان أول كتاب قرأته قراءة تمعن وتفهم .

وذات يوم وجدتنى معلمتى فى ركن من أركان المكتبة منكبة على قراءة « الخطاب القرمزى » The Scarlct Letter وكنت آنئذ فى الثامنة من عمرى ؛ وأذكر انها سألتنى إن كنت أحب « بيرل » الصغيرة ، وشرحت لى بعض ألفاظ كانت تحيرنى ، ثم قالت لى إن عندها قصة جميلة عن ولد صغير ، تثق انها ستعجبنى أكثر من «الخطاب القرمزى» وكان اسم هذه القصة «اللورد فنتليروى الصغير» فوعدتنى أن تقرأها لى الصيف القادم . على أنا لم نبدأ القصة الا من شهر أغسطس ، وكانت الأسابيع الأولى من المدة التى قضيتها

على الشاطئ حافلة بالاستكشافات المثيرة ،حتى نسيت أن هناك أشياء تسمى كتباً. ثم مضت معلمتى لزيارة بعض الأصدقاء فى بوسطن وتركتنى وحدى فترة قصيرة.

ولما عادت كان أول شيء فعلناه أنا شرعنا فى قراءة قصة «اللورد فنتليروى الصغير» وأذكر بكل وضوح الزمن والمكان اللذين قرأنا فيهما الفصول الأولى من هذه القصة الرائعة. وكان يوماً دافئاً من أيام شهر أغسطس ، وكنا جالسين فى أرجوحة معلقة بين شجرتين وقورين من شجر الصنوبر على مسافة قريبة من الدار ؛فعجلنا نغسل الأطباق بعد الغداء حتى يكون لدينا وقت كاف من الفراغ بعد الظهر لنتفرغ فيه لقراءة القصة. فبينا نحن نسرع فى طريقنا إلى الأرجوحة وسط العشب الطويل تزاحم « النطّاط » حولنا ، وعلق بملابسنا ؛ ولا زلت أذكر أن معلمتى ألحت فى التقاطها واستبعادها عنا جميعا قبل أن نجلس ، مما بدا لى أنه تضييع للوقت. ووجدنا الأرجوحة كلهامغطاة بأبر الصنوبر ، فان أحداً لم يستعملها طيلة غياب معلمتى. ولما أرسلت الشمس أشعتها الدافئة على أشجار الصنوبر فاح شذاها ، وكان النسيم عليلاً فيه شيء لاذع من رائحة البحر. هذا ،

وقبل أن نبدأ القصة ،شرحت لى الآنسة «صاليفان» الأشياء التى رأت أنى لا أستطيع أن أفهمها وحدى ، كما شرحت لى فى أثناء القراءة ما كان يصادفنى فيها من الألفاظ الغريبة علىّ ،وهى ألفاظ كانت فى البداية كثيرة عديدة مما عطل القراءة عدة مرات . ولكن بعد أن فهمت الموقف كل الفهم استغرقتُ فى القصة استغراقاً لم يكن ليتيح لى أن ألاحظ الألفاظ على حدة ؛ ولم أكن مع الأسف أطيق الانتباه إلى تلك الشروح التى كانت الآنسة «صاليفان» تراها ضرورية لى كى أحسن فهم القصة . فعندما تملّ أصابعها ، ولم تعد تستطيع أن تتهجى لى الألفاظ ،شعرت لأول مرة بما أنافيه من حرمان .فتناولتُ الكتاب بيدى وحاولت أن أتحسس الحروف بلهفة عظيمة لم أنسها بعد . و بناء على رغبتى أمر المستر « أنجانوس » بطبع هذه القصة بالحروف البارزة ؛ فقرأتها المرة بعد المرة حتى كدت أحفظها كلها عن ظهر قلب . ولقد كان اللورد «فنتلروى الصغير » رفيقى العذب الحنون فى طفولتى كلها . ذكرت كل هذه التفصيلات مخاطرة بأن أكون مملّة مسئمة ، ولكنها كانت واضحة كل الوضوح فى ذاكرتي إذا ماقيست بذكرياتى الغامضة المتقطعة المضطربة عن مطالعاتى الأولى .

ومن تاريخ قراءتى قصة « اللوردفنتليروى الصغير » يبدأ اهتمامى الصحيح بالكتب والمطالعة. فى السنتين التاليتين طالعت كتباً كثيرة فى المنزل وفى زياراتى لبوسطن . وإن كنت لا أذكر كل هذه الكتب، ولا الترتيب الذى قرأتها به ،فانى لاشك أذكر أن من بين ماقرأته من الكتب كان « الأبطال اليونانيون» The Greek Heroes وقصص لافونتين،وكتاب العجائب Wonder Book تأليف هوثورن و«قصص من الإنجيل»وقصص من شكسبير « للام ؟(Lamb)و«تاريخ إنجلترا للأطفال» (The Child's History of England لديكنز، وألف ليلة،و The Swiss Family Robinson وروبنصن كروز ،و« نساء صغار » و« تقدم الحجاج» The Pigrims' Progress [1] ، وهايدى (Heidi) وهى أقصوصة جميلة ، قرأتها فيما بعد بالألمانية . قرأت هذه الكتب كلها فى الفترات بين الدروس واللعب ، وكنت أشعر بسرور متزايد على الدوام . إنى لم أقتلها بحثاً ولم أحللها تحليلا

---

(١) قصة مشهورة فى الأدب الإنجليزى لمؤلفتها لويزا ألكوت Louisa Alcott (١٨٣٢ — ١٨٨٨) وهى قصة موجهة للفتيات كتبتها سنة ١٨٨٦ ، وكل قصص هذه المؤلفة موجهة إلى الشباب .

ولم أكن أدرى أن كانت مكتوبة بقلم جيد أم لا ، فلم أكن أفكر مطلقا فى المؤلف ولا فى أسلوبه . فقد كانت الكتب تلقى بما فيها من كنوز وذخائر بين يدى ، وكنت أقبلها كلها كما أتقبل ضوء الشمس ومحبة الأصدقاء . وقد أحببت كتاب « نساء صغار » لأنه منحنى شعوراً بأواصر القرابة التى بينى وبين البنات والصبيان الذين يستطيعون أن يروا ويسمعوا . وإذ كانت ظروف حياتى محدودة ومقصورة من نواح عدة ، كان علىّ أن أنظر بين دفتى كل كتاب عن أخبار عالم غير ذلك الذى أعيش فيه .

ولم أهتم اهتماما خاصا بكتاب « تقدم الحجاج »[1] ويخيل إلى أنى لم أتمم قراءته كله . كذلك لم أهتم بالقصص الصغيرة . فقد قرأت قصص لافونتين لأول مرة فى ترجمات إنجليزية لم استمتع بها الا استمتاعا فاترا ، ولكنى بعد ذلك رجعت فقرأتها باللغة الفرنسية

---

(١) لمؤلفه جون بنيان John Bunyan (١٦٢٨ — ١٦٨٨) وهو رجل عامل كان يعظ جيرانه ، فقبض عليه وسجن . فرأى فى نومه وهو فى السجن حلما أصبح مشهورا ، دونه فى كتابه هذا ونشره سنة (١٦٧٦) وله كتابان غيره اشتهرا كذلك .

فوجدت أننى لم أزدد لها حبا على الرغم من سيطرة المؤلف العجيبة على الألفاظ والعبارات . ولم أدر لذلك من سبب . ولكن القصص التى يستنطق فيها الحيوان، و يعمل كما يعمل بنو الانسان ، لا تسترعى انتباهى ولا تروقنى إلى حد كبير . فتصوير الحيوان بذلك الشكل « الكاريكاتورى » السخيف يشغل بالى إلى حد يبعدنى عن الانتباه إلى ما فى القصة من مغزى وعبرة .

ذلك أن « الافونتين »[1] قلما يحرك ما فينا من حاسة أخلاقية سامية ، أو هو لا يمسها أبدا ؛ فأسمى الأوتار التى ينقر عليها هى أوتار العقل وحب الذات . فجميع قصصه يتخللها مبدأ أن أخلاقية الانسان تصدر عن حب الذات وحده ؛ فاذا ما قام العقل بتوجيه حب الذات هذا وكفّه ، نشأت السعادة . وفى رأيى أن الأثرة أساس كل شر ، ولكنى أخشى أن أكون بعيدة عن الصواب . فقد كان لدى لافونتين فرص عدة لملاحظة الناس أكثر مما يمكن

---

(١) La Fontaine — جان لافونتين (١٦٢١ — ١٦٩٥) الأديب الفرنسى ، المعروف بإبداعه فى فن القصص . وقصصه القصار مشهورة فى العالم كله كتبها بين سنتى ١٦٦٨ — ١٦٨٨ وقد ترجم أكثرها إلى العربية شعرا ونثرا .

أن يتاح لى ؛ ولست أعترض اعتراضا كبيرا على تلك القصص الساخرة المتشائمة ، بقدرما أعترض على القصص التى ترمى الى تعليم الناس الحقائق الخطيرة الشأن على لسان القردة والثعالب .

ولـكننى أحب « كتاب الغـابة » The jungle Book وكتاب « الحيوانات التى عرفتها » Wild Animals I have Known فإنى أشعر باهتمام صحيح نحو الحيوانات نفسها ، لأنهـا حيوانات حقيقية ، وليست صوراً « كاريكاتورية » للناس . ولايسع المرء منا إلاّ أن يعطف على أنواع حبها ، وكراهيتها بعضهـــا بعضا ، وأن يضحك من مهازلها « وكوميدياتها » ، ويبكى من مآسيها . أما إن كان لها مغزى وفيهـا عبرة فذلك أمر يدق على أفهامنا .

وقد تفتح عقلى فى سرور ، و بشكل طبيعى لادراك العصور القديمـة — فاليونان ، اليونان القـديمة ، تروعنى وتسحرنى سـحرا خاصا . فكنت أتصور أن أرباب أثينا وربّاتهالا تزال تمشى على الأرض ، وتتحدث إلى الناس وجها لوجـه . ولقد أقمت خفية فى صميم فؤادى محاريب لمن أحببته منها أكثر من غيره . وعرفت جماعة الحوركلها ، وأغرمت بها أيما غرام ، كما عرفت وأحببت

الأبطال وأنصاف الآلهة . لا ! إنى لم أحبها كلها على الاطلاق ، فان قسوة ميديا وجاسون[1] وشرهما كانتا من الوحشية بحيث لا يمكن أن نغفرهما لهما ؛ وكثيرا ما عجبت لمَ سمحت لهما الآلهة بأن يفعلا الشر ثم تعاقبهما على ما ارتكبا من خبائث ! ولا يزال هذا السر خفيا على لم أثبته ، ولا زلت أعجب كيف كان ذلك .

ان الإلياذة[2] هى التى جعلت من اليونان جنة لى ونعيما . وإذ قصة ترويا قبل أن أقرأها فى أصلها اليونانى فانى أجد مشقة كنت أعرف كبيرة فى أن أجعل الألفاظ الأغريقية تسلم إلىّ ما فيها من ذخائر وكنوز ، بعد أن ألممت بنحو اللغة ، وتخطيت حدود مبادئه الأولى . فليس الشعر الرائع بحاجة إلى مترجم يشرحه غير قلب يتأثر به ويستجيب له ، سواء كان ذلك الشعر بالانجليزية أو الألمانية . وليت أولئك

---

(١) فى أساطير اليونان أن «ميديا» الساحرة بنت ملك كولكيس ، أحبت «جاسون» الذى جاء إلى كولكيس باحثا عن الجزة الذهبية . فلما تزوج كروزا نقمت منه ميديا ذلك ثم أهدت إلى العروس رداء مسموما قتلها وقتل معها طفليها الصغيرين ابنى جاسون منها .

(٢) التى تنسب إلى هوميروس الشاعر الإغريقى القديم الكفيف البصر ويقال إنه عاش فى القرن العاشر قبل الميلاد .

الذين يجعلون قصائد الشعراء الرائعة كريهة الينا ومنفرة لنا بتحليلاتهم المتعبة وشروحهم الشاقة ، و بما يفرضونه علينا من فروض — ليتهم يعلمون هذه الحقيقة البسيطة ! فليس ضروريا أن يعرف الانسان كل كلمة يقرؤها ، وأن يفككها ، و يحللها إلى أجزائها الأساسية ، و يتبين موقعها من الإعراب فى الجملة كى يفهم قصيدة رائعة و يقدرها قدرها . ومع أنى أعترف كل الاعتراف بأن العلماء من أساتذتى قد وجدوا فى الإلياذة كنوزاً أعظم مما يمكن أن أجده أنا فيها فى يوم من الأيام ، فلستُ بالنهمة الطماعة ، بل أنا قانعة راضية بأن يكون غيرى أعقل منى وأكثر حكمة . ولكنهم مع علمهم الواسع ومعرفتهم الشاملة لن يستطيعوا أن يقيسوا استمتاعهم بهذه الملحمة الرائعة ، و يحددوا مقداره. وكذلك أنا لا أستطيع ! فعندما أقرأ أروع أجزاء الإلياذة أشعر بحاسة روحانية تسمو بى عن ظروف حياتى الضيقة المحدودة التى تعنتنى وتضايقنى ، فأنسى قيودى الفيزيقية المفروضة علىّ — فأنما عالمى فى السماء — او ان السماء كلها ، بطولها وعرضها ، ملك لى .

أما إعجابى بالإنيادة[1] (Aeneid) فلا يبلغ هذا الحد ، و إن

(١) الإنيادة ملحمة شعرية لاتينية وضعها الشاعر الرومانى =

كان إعجاباً حقيقياً خالصاً . لقد بذلت ما فى وسعى من جهد فطالعتها من غير استعانة بشروح أو معاجم . وكنت دائماً أحب أن أترجم منها مايروقنى من الوقائع والحوادث ، ويسترعى اهتمامى بوجه خاص . فقدرة « فرجيل » على التصوير باللفظ والعبارة عجيبة قد تصل إلى حد الإبداع أحياناً ، ولكن آلهته وأشخاصه تتحرك فى ميادين الشهوة ومناظر الخصومة والرأفة والحب ، كما تتحرك الشخصيات الرشيقة فى تمثيلية من عصر الملكة إليصابات . على حين أن الأشخاص فى الألياذة تقفز ثلاث قفزات ثم تأخذ فى الغناء والإنشاد . إن « فرجيل » رزين ، وقور محبب إلى النفس ؛ فهو أشبه ما يكون بتمثال لأبولو[1] (Apollo) من رخام غمره ضوء القمر . أما هومر فشاب جميل ممتلىء حياة ونشاطا ، وقف فى وضح الشمس والريح يداعب شعره .

ما أسهل أن يطير الإنسان بأجنحة من ورق ! فلم تكن مسافة

= فيرجيل (٧٠ — ١٩ ق م) فى اثنى عشر كتابا يمجد فيها أسرة جوليان التى كان عميدها الامبراطور أغسطوس الخامس .

(١) أبولو — إله من آلهة من اليونان — ابن كبيرها زيوس ويعده هو نفسه كبير آلهة الفنون ، وهو إله الشعر والموسيقى والغناء والحياة الزراعية ، وتبرزه التماثيل على أنه المثل الأعلى لجمال الرجل .

الانتقال من أبطال اليونان إلى الألياذة سفر يوم ، ولم تكن سارة كل السرور ! إن المرء ليستطيع أن يسافر حول العالم مرات عدة ، على حين أسلك أنا طريقي الشاقة بين المتاهات اللابيرانتية وسط كتب النحو والمعاجم ، أوأتورط فى تلك الهوى المريعة التى يسمونها امتحانات ، والتى تضعها المدارس والكليات لإرباك الذين يسعون وراء المعرفة والعلم ؛ وأظن أن سلوك هذه الطريق يبرره الغاية . ولكنه بدا لى كأنه أمر لانهاية له ولا آخر ، على الرغم من المفاجآت السارة التى كانت تصادفنى أحياناً عند منعرج الطريق .

بدأت أقرأ الإنجيل من قبل أن أستطيع فهم آياته بزمن طويل. والآن يبدو لى غريباً أن يكون ثمة وقت كانت فيه روحى لا تحس ما فى هذا الكتاب من انسجام عجيب . ولكنى أذكر كل الذكر ، صباح يوم مطير من أيام الآحاد ، لم يكن عندى شيء أفعله ، فرجوت من ابنة عمى أن تقرأ لى قصة من قصص الإنجيل؛ ومع أنها كانت ترى أنى لا أستطيع أن أفهمها ، فقد بدأت تهجى فى يدى قصة يوسف و إخوته. ولكن القصة لم تستثر اهتمامى لسبب ما ؛ فغرابة اللغة ، وكثرة التكرار جعلاها تبدو لى بعيدة عن الحقيقة ، كما أن حوادثها تقع

بعيداً جداً عنا ـ تقع فى بلاد كنعان. فأخذ النعاس عينى، فنمت وسرحت فى وادى الأحلام قبل أن يعود الإخوة بقميص أخيهم المتعدد الألوان إلى خباء يعقوب أبيهم، وكذبوا عليه كذبتهم الخبيثة. انى لا أستطيع أن أفهم الأسباب التى جعلت قصص اليونان والرومان حافلة بالروعة والفتنة لى، على حين أن قصص الإنجيل لم تسترع اهتمامى، اللهم إلا إذا كان ذلك راجعاً إلى أني تعرفت بكثير من الإغريق فى مدينة بوسطن فنفثوا فى روحى التحمس لقصص بلادهم وأساطيرها؛ على حين أنى لم أقابل يهودياً واحداً أو مصرياً واحداً؛ فاستنتجت أنهم لا بد أن يكونوا قوما غير متحضرين، وأن القصص التى تعزى إليهم لا بد أن تكون موضوعة؛ وأن هذا الفرض هو علة ذلك التكرار وتلك الأسماء الغريبة التى أجدها فى الكتاب. ومن المدهش أنه لم يخطر ببالى أن أقول عن الأسماء والألقاب اليونانية إنها غريبة شاذة.

ولكنى لست أدرى كيف أتحدث عن الأمجاد التى وقفتُ عليها فى الإنجيل وكشفتها فيه منذ ذلك الوقت؟ فقد ظللت أقرؤه سنوات عدة وأنا شاعرة بشعور متزايد من السرور والإلهام؛ وإنى لأحبه أكثر من أى كتاب آخر... ولكنى أتمنى مع المستر « هاولز »،

لو تنقى آداب الأقدمين وتخلص من كل ما فيها من حوشى ، ويستبعد منها كل مايتنافى مع الجمال ! وإن كنت أعترض، بقدر مايعترض أى إنسان آخر ، على إضعاف هذه الكتب العظيمة أو الكذب عليها .

وفى سفر «استير» شىء مؤثر مريع ، لما فيه من بساطة وصراحة مخيفة. فهل ثم شىء أبلغ تأثيراً من ذلك المنظر الذى تقف فيه «استير» أمام سيدها الخبيث ؟ إنها لتعرف أن حياتها فى يديه ، وليس من يحميها من غضبه و بطشه ، ومع ذلك تتغلب على ما فيها من خوف نسوى ، وتواجهه ، تحدوها عاطفة من أسمى العواطف الوطنيـة ، وليس عندها سوى فكرة واحدة مسيطرة عليها : انها لو هلكت ، هلكت ، أما إن عاشت فقد عاش معها شعبها .

وكذلك قصة روث ، وإنها لقصة شرقية حقاً ! ومع ذلك فما أوسع البون بين حيـاة هؤلاء الناس الريفيين البسطاء وحياة أهل العاصمة الفارسية ! فروث مخلصة ورقيقة دمثة الأخلاق ، فلا يسعنا إلا أن نحبها وهى واقفة مع الحصّاد وسط سيقان القمح المتماوجة ؛ فروحها الجميلة الخالية من الأثرة تضىء كأنها نجم لامع يتلألأ فى عصر مظلم قاس ؛ إن محبه مثل محبة روث لتستطيع أن تسمو فوق العقائد المصطرعة ، والأهواء العنصرية الراسخة فى النفوس — وليس من السهل أن تجد لها فى العالم مثيلا .

فالإنجيل يفيض على وجدانا عميقاً مريحاً بأن الأشياء المرئية أمور دنيوية، على حين أن الأشياء الغيبية الخفية عن أنظارنا خالدة أزلية.

ومنذ عشقت الكتب لا أذكر أن وقتاً مر بي لم أحبب فيه شكسبير. ولا أستطيع أن أعين على وجه التحديد الوقت الذي قرأت فيه كتاب «لام»، «قصص من شكسبير». ولكنني أذكر أني قرأت هذه القصص أول ما قرأتها بعجب مثل عجب الأطفال، وفهم مثل أفهامهم؛ ويخيل إلي أن «ما كبث[1]» استرعت اهتمامي أكثر من أية قصة أخرى؛ فكان حسبي قراءة واحدة فترسخ كل تفصلات القصة في ذاكرتي رسوخاً لا يمحى. وظلت الأشباح والساحرات تلاحقني في أحلامي، وإني لأستطيع أن أرى — أرى فعلا — الخنجر، ويد الليدي ما كبث الصغيرة البيضاء. فبقعة الدم المريعة كانت شيئاً حقيقياً عندي، كما كانت عند الملكة التي هدها الحزن واخترمتها الهموم.

وبعد «ما كبث» قرأت « كنج لير »[2] (King Lear) ولن

(١) لشكسبير. (٢) لشكسبير أيضاً.

أنسى الفزع الذى استشعرته عندما بلغت المنظر الذى فيه تسمل عينا «جلوستر»، فاستولى على الغضب، ووقفت أصابعى، وأبت أن تتحرك ولبثت جامدة برهة طويلة والدم ينبض فى أصداغى وتجمعت فى قلبى كل كراهية يتسنى لطفل أن يحس بها و يستشعرها .

ولا بد أن أكون قد عرفت « شايلوك » و « ساتان » حوالى ذلك الوقت . فهاتان الشخصيتان ظلتا مرتبطتين فى ذهنى بعضهما ببعض أمداً طويلا . وأذكر أننى أسفت لهما كل الأسف، عندما شعرت شعوراً غامضاً بأنهما لا يمكن أن تكونا خيرتين ، ولو أرادتا أن تكونا كذلك . إذ يبدو أن أحداً لا يرغب فى مساعدتهما أو أن يعطيهما فرصة عادلة . وحتى الآن لا أقدر أن أجد فى نفسى قدرة على أن أحكم عليهما حكماً نهائياً بفسادهما ، فثم أوقات تمر بى ، أشعر فيها أن أمثال شايلوك و يهودا ، بل والشيطان نفسه لا تخرج عن أنها أجزاء محطمة من عجلة الخير العظمى التى لا بد أن تصبح صحيحة كاملة عندما يجىء أوانها .

يبدو غريباً أن تترك قراءتى الأولى لشكسبير ذكريات كثيرة غير سارة فى نفسى ؛ فالروايات المشرقة الرقيقة الخيالية التى أحبها

الآن أكثر من سواها ، لم تكن فى أول الأمر تؤثر فى نفسى التأثير الحسن، ولعل ذلك يرجع إلى أنها تعكس الضوء والسرور اللذين يملآن حياة الأطفال عادة . ولكن ليس فى العالم شىء أكثر تقلباً وتحولاً من ذاكرة الطفل من حيث ما تعى ومن حيث ما تنسى »

وقرأت منذ ذلك الوقت روايات شكسبير عدة مرات؛ وحفظت أجزاء منها عن ظهر قلب ، ومع ذلك لا أجدنى قادرة على أن أقول أى رواياته أحب إلى نفسى. فسرورى بها مختلف منوع كاختلاف مزاجى وتنوعه . فللأغنيات الصغيرة معنى خاص فى نفسى ، وهو معنى ناضر عجيب نضاره المآسى وعجبها . ومع حبى لشكسبير اعترف بأنه عمل شاق مرهق أن أقرأ بين سطوره جميع المعانى التى بينها لنا النقاد والشراح ؛ وكنت أحاول أن أتذكر تفسيراتهم وشروحهم ولكنها كانت تفاسير وشروحا تثبط همتى وتستثير غضبى، ولذا عاهدت نفسى سراً ألا أحاول ذلك مرة أخرى ، وإن كنت قد نقضت هذا العهد عندما أخذت أدرس شكسبير على الأستاذ كتردج Ketteridge . أعرف أن فى كتب شكسبير ،وفى العالم نفسه، أشياء كثيرة لا أحسن فهمها . ويطيب لى أن أرى الغشاوات ترتفع الواحدة بعد الأخرى

فتكشف لى عن عوالم جديدة من الفكر والجمال .

وبعد الشعر أحب التاريخ ؛ فقرأت كل كتاب من كتب التاريخ وقع فى يدى من فهارس الحقائق الجافة ، ومسرد السنوات سردا أجف من هذه الفهارس ، إلى كتاب « جرين » النزيه الرائع عن تاريخ الشعب الانجليزى History of the English People ومن تاريخ أوربا لمؤلفه «فريمن» Freeman إلى تاريخ إمرسون Emerson عن العصور الوسطى . وأول كتاب أشعرنى شعورا حقيقيا بقيمة التاريخ هو كتاب سوينتون Swinton عن تاريخ العالم ،وقد جاءنى هدية فى عيد ميلادى الثالث عشر .ومع اعتقادى بأنه لم يعد موثوقا به فقد احتفظت به منذ ذلك الوقت على أنه ذخر عظيم من ذخائرى . فمنه تعلمت كيف انتشرت الأجناس البشرية من أرض إلى أرض ، وأقاموا مدائن عظيمة ، وكيف أن نفرا قليلا من الحكام والعظماء قد سيطروا على كل شىء وفتحوا بكلمة واحدة حاسمة أبواب السعادة لآلاف الآلاف من الناس ، وأوصدوها فى وجوه ملايين منهم أكثر من ذلك عددا . كما تعلمت منه كيف أن أمما شتى صارت رواداً للفن وضروب المعرفة

وفتحوا الطريق لتنمو نموها العظيم فى العصور المقبلة ، وكيف انحطت الحضارة ، ثم عادت ونهضت ، كما نهض «الفونكس» ، بين أبناء الشمال النبلاء ؛ وكيف استطاع العظماء والحكماء أن يفتحوا بوساطة الحرية والتسامح والتربية الطريق لخلاص العالم كله ونجاته .

ومن مطالعاتى فى الكلية ألممت إلى حدما بالأدبين الألمانى والفرنسى . فالألمان يقدمون القوة على الجمال ، والحقيقة على العرف ، فى الحياة وفى الأدب على حد سواء . وانك لتحس فى كل شىء يعمله الألمان نشاطا عنيفا صخابا . فاذا تكلم الألمانى لم يكن ليؤثر فى الآخرين ، ولكن لأن قلبه يكاد يتفجر إذا لم يجد مخرجا للآراء التى تتوقد بها روحه .

وأحب من الآداب الألمانية ما فيها من تحفظ رقيق ؛ على أن أعظم مجدها هو ما أجده فيها من الاعتراف بما فى المرأة من حب قوى يحفزها إلى التضحية بالذات . وهذه الفقرة تغشى الاداب الألمانية كلها ، أشار اليها « جوته » بشكل خفى فى « فاوست » .

وقرأت لكثير من الكتاب الفرنسيين . وأحبهم إلى

« موليير » [1] و « راسين » . وفى كتب « بلزاك » [2] روائع كثيرة ؛ وفى «مريميه» قطع تشعرك بأنها نفحة قوية تهب عليك من هواء البحر . أما الفرد دوموسية «فمستحيل» وأنى لأعجب بفكتور هوجو [3] وأقدر نبوغه وعبقريته ، حق قدرهما ، كما أقدر توقد ذهنه و«رومانسيته » وأن لم يكن من الأدباء الذين أتحمس لهم . ولكن هوجو وجوته ، وشيلر ، وسائر الشعراء الفحول أنما يفسرون الأشياء الخالدة ، وأن روحى لتتبعهم فى توقير واحترام إلى حيث تكون الحقيقة والجمال والخير شيئاً واحداً .

أخشى أن أكون قد أطلتُ أكثر مما ينبغى لى فى ذكر

---

(١) موليير اسم مستعار للشاعر الفرنسى المشهور . واسمه الحقيقى Jean Baptiste Poquellin (١٦٢٢ — ١٦٧٣) وقد ترجمت كثير من مسرحياته إلى العربية ومثلت بها مثل « الشيخ متلوف » و« البخيل » و « طبيب رغم أنفه » .

(٣) أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) كاتب فرنسى قصصى . درس الحقوق ثم تفرغ للأدب ومؤلفاته كثيرة .

(٢) هوجو — هوفيكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) الكاتب الفرنسى الشاعر المشهور مؤلف رواية « البؤساء » وغيرها .

أصدقائى من الكتب ، مع أنى لم أذكرمنهم غير أحب المؤلفين إلىّ ؛ ولهذا قد يتصور المرء أن دائرة أصدقائى كانت محدودة جداً وغير ديمقراطية ، وهو تصور بعيد كل البعد عن الصواب . فإنى أحب كتاباً كثيرين لأسباب عديدة ؛ فأحب كارلايل لجفوته واحتقاره لكل بهرج زائف ؛ وأحب « وردزورث »[1] الذى يقول بوحدة الإنسان والطبيعة ؛ وأجد لذة فى عجائب «هود» Hood ومدهشاته ، وفى غـرابة « هريك »[2] Herrick فى أشـعاره من شذا الورد والسوسن المحسوس . وأحب هويتيار (Whittier) لحماسته واستقامته الأخلاقية . وقد سبق لى أن التقيت به ، وأن ذكرى صداقتنا

(١) وردزورث . (١٧٧٠ — ١٨٥٠) شاعر من أكبر شعراء الإنجليز . ساح فى فرنسا وألمانيا فى أثناء الثورة الفرنسية ثم عاد إلى بلاده وأستقر فى إقليم البحيرات وهو من أجمل أقاليم انجلترا وأروعها . و وردزورث معدود من أكبر شعراء الطبيعة .

(٢) هريك — روبرت هريك (١٥٩١ — ١٦٧٤) شاعر نجليزى من شعراء القرن السابع عشر يمتاز شعره الغنائى بكثير من الجمال والعذوبة وقوة العاطفة الشعرية .

لتضاعف مسرتى التى أجدها فى قصائده . وكذلك أحب « مارك توين» (Mark Twain) ومن ذا الذى لا يحبه؟ إن الآلهة نفسها تحبه، ووضعت فى قلبه كل نوع من أنواع الحكمة ؛ و إذ خشيت عليه أن يكون متشائماً، فقد طوقت عقله برباط من الحب والإيمان . وأحب سكُوت[1] (Scott) لما أجده فيه من نضارة وجسارة وأمانة . وأحب جميع الكتاب الذين تشبه عقولهم عقل « لُوِيل »[2] (Lowell) تنشط فى وضح التفاؤل وضوئه الباهر ، والذين هم مصادر من الفرح وحسن النية ، و إن كان يشوبها أحياناً شىء من الغضب ، وتجد فيها هنا وهناك رذاذاً شافياً من العطف والشفقة .

---

(١) سكوت — السير والترسكت (١٧٧١ — ١٨٣٢) كاتب قصصى انجليزى مشهور ، ولد فى أدنبره عاصمة اسكتلنده ، فقد القدرة على تحريك ساعده قبل أن يبلغ السنتين . ومع أنه درس القانون فقد عكف على الأدب وكتب قصصا كثيرة لها صبغة تاريخية .

(٢) لويل — (١٨١٩ — ١٨٩١) شاعر أمريكى أديب ناقد ، ولد فى كمبريدج من أعمال ولاية مساشوستس وتعلم فى جامعة هارفارد . نشر أول ديوان له سنة ١٨٤١ وتعين سنة ١٨٥٥ أستاذا للغات الحديثة ، فى جامعة هارفارد خلفا للشاعر « لنجفلو » .

وجملة القول إن الأدب هو (طُبياى) [٣] ؛ هو حلمى . ففيه لا أشعر بأنى محرومة ، فلا حاجز من الحواس يمنع عنى أحاديث أصدقائى الكتب الحلوة الرشيقة ، فهى تخاطبنى فى غير حيرة أو اضطراب ؛ فما تعلمته وما علمنى إياه غيرى ، يبدو لى على جانب كبير من التفاهة والسخف إذا قيس بما للكتب من محبة كبرى وصداقة سماوية .

---

(٣) طبيا — Utopia كلمة معناها الحرفى « ليس فى أى مكان » ، وهى اسم قصة وضعها السير توماس مور الأديب الإنجليزى سنة ١٥١٦ لجزيرة خيالية تصورها ووضع لها نظاما مثاليا للحكم ؛ ومن ثم صارت تطلق على كل نظام يتخيله الإنسان ولا يمكنه تحقيقه — فهى أشبه شيء بالمدنية الفاضلة ، وقد رأينا بعض الكتاب فى مصر وغيرها يستعملونها بهذا الشكل فلم نر بأسا من استعمالها هنا

الفصل الثاني والعشرون

دنيا جميلة

أرجو ألاّ يكون القراء قد استنتجوا من الفصل السابق الذى عالجتُ فيه موضوع الكتب التى قرأتها أن المطالعة هى متعتى الوحيدة ؛ فمسراتى وضروب تسليتى كثيرة ومنوعة .

ولقد أشرت أكثر من مرة ، وأنا أسرد قصتى ، إلى غرامى بالريف و بالألعاب الرياضية فى الهواء الطلق . فتعلمت التجديف والعوم فى صغرى ، حتى كدت أن أعيش فى سفينتى طيلة الصيف الذى قضيته فى مدينة رنتام بولاية مساشوستس . فليس أحب إلى ولا أبعث لسرورى من أن أدعو أصدقائى الذين يزورونني إلى التجديف . لست أنكر أنى لا أستطيع أن أقود السفينة وأوجهها كما ينبغى ، فالعادة أن يتولى أحد أمر السكان (الدفة) يوجهه فى أثناء ما أقوم أنا بالتجديف . ومع ذلك فقد كنت أجدف أحيانا والسفينة من غير سكان، إذ يلذ لى أن أجدف واستهدى برائحة أعشاب البحر وسوسنه ،

وبالشجيرات التى تنمو على شاطئه .ومن عادتى أن استعمل مجاديف مزودة بأربطة من الجلد لتحفظها فى مكانها فلا تنبو عنه . وانى لأعرف من مقاومة الماء أن كان المجدافان متزنين أتزانا صحيحا أم لا : وأعرف بالطريقة عينها أن كنت سائرة مع التيار أو ضده .هذا ، وأنه ليطيب لى أن أجاهد ضد الريح والأمواج وأقاومهما . فأى شىء يثير النفس ويحركها أكثر من أن تجعل سفينتك الصغيرة المثبتة تتحرك طوع إرادتك وعضلات يديك ! فتندفع على سطح الماء فى خفة وسرعة فوق الأمواج المتألقة المائلة ،وتحس بسلطان الموج المتدافع باستمرار !

وأحب تجديف القوارب الصغيرة كذلك! ولا تأخذنك الدهشة إن قلت إنى أحب تجديفها فى الليالى القمراء . نعم أنى لا أستطيع أن أرى القمر يصعد فى الجو خلف أشجار الصنوبر ، ويتسلق فى هدوء عبر أجواز السماء ، فيرسم لنا طريقا من النور نتبعه ونسير فى هداه ؛ ولكنى مع ذلك أدرك تمام الادراك وجوده فى السماء فاضطجع على ما حولى من الوسائد والحشايا وأغمر يدى فى الماء وأتصور لألاءه وهو فى مسراه . وقد يحدث أن تتجرأ سميكة فتنزلق

من بين أصابعى ، وكثيرا ما أشعر بسوسنةمائية تضغط على يدى فى استحياء ؛ وعندما أدخل فى كهف أوفى شرم فى البحر ثم أغادره، أشعر فجاءة بانفساح الجو واتساعه حولى ، و يبدولى كأن دفئا مشرقا قد شملنى كلى، ومع ذلك فلست أستطيع أن أعرف إن كان ذلك الدفء صادرا عن المـاء أو عن الأشجار التى كانت الشمس قد أفاضت عليهامن حرارتهاحتى غمرتها بها .ولقد سبق لىأن أحسست بذلك الإحساس الغريب حتى فى قلب المدينة نفسها ، وأحسست به فى الأيام الباردة العاصفة ، كما أحسست به فى الليالى المظلمة ، وأنه ليشبه قبلة تطبعها على وجهى شفتان حارتان .

أماتسليتى الحبيبة إلى فى ركوب البحر . ففى صيف سنه١٩٠١ زرت نوفاسكوشيا[١] وأتيحت لى فرص لأعرف البحر المحيط، وهى فرص لم استمتع بمثلها من قبل . فبعد قضاء بضعة أيام فى بلاد «ايفانجلين»[٢] (Evangeline) التى نسجت حولها قصيدة الشاعر لنجفلو[٣] (Longfellow)غلالة من الفتنةوالسحروالجمال،مضيت صحبة الآنسة

---

(١) نوفا سكوشيا ـــ مديرية فى كندا تتكون من شبه جزيرة طويلة ومن جزيرة كيب برتون ، جنوبى مصب نهر السنت لورنس

(٢) إفانجلين ـــ قصيدة للشاعر لنجفلو ظهرت سنة ١٨٤٧

(٣) لنجفلو (١٨٠٧ ـــ ١٨٨٢) شاعر أمريكى ، كان =

« صاليفان » إلى مدينة « هاليفا كس » حيث قضينا الشطر الأعظم من الصيف، وكانت الميناء جنتنا ومسرح مسرتنا . فما أبدع تلك الرحلات البحرية التى قمنا بها من « بدفرد بيسن » Bedford Basin و إلى جزيرة « ما كنناب » Mcnabb و « يورك ريداوات » York Redoubt و « النورث » وست آرم North West Arm ! وفى الليل ! لا تسل عن الساعات العجيبة المريحة التى قضيناها فى ظلال البواخر الحربية الضخام الصامتة . لقد كان ذلك كله فى منتهى الجمال ، بالغا أقصى الروعة ؛ وكانت وذكراه مصدر سرور خالد لا يزول .

وذات يوم وقع لنا ماهز أعصابنا : فقد أقيمت حفلة بحرية فى نورث وست آرم ، اشتركت فيها قوارب كثيرة من مختلف البواخر الحربية، فحصلنا على قارب شراعى وذهبنا مع خلق كثيرين لنشاهد السباق ؛ وكان البحر حافلا بمئات من القوارب الشراعية تتأرجح على مقربة منا ذهابا وجيئة ، وكان البحر ساجيا هادئا . فلما انتهى السباق وولينا

= أستاذ اللغات الحية فى جامعة هارفارد . ظهر أول ديوان له سنة ١٨٣٩ ثم تلاه غيره .

ومن أهم قصائده المعروفة Hiawatha التى ظهرت سنة ١٨٥٥ و « إيفانجلين » وغيرهما . وكان له فى انجلترا نفسها مكانة مرموقة

وجهنا شطر البيت عائدين ، لحظ واحد من جماعتنا سحابة سوداء مقبلة من البحر ؛ وظلت هذه السحابة تعظم وتنتشر وتتضخم حتى غطت السماء جميعها ؛ وهبت الريح ؛ واصطخبت الأمواج ، وتلاطمت على حواجز غير مرئية ، وواجهت سفينتنا الصغيرة العاصفة غير هيابة ولا وجلة بقلوع منشورة ، وحبال مشدودة ، فبدت كأنها تجلس على متن الريح ؛ فتارة كانت تهتز على الأمواج ، وتارة تقفز من على ظهر موجة متهاعاتية ؛ فينتهى الأمر بها أن تهبط وتنحدر عنها فتسمع لها صوتا غاضبا مدويا ؛ ثم سقط من السفينة شراعها الرئيسى ، وجعلنا « نصفح ونصلح » ونصارع ما يعترضنا من رياح هوج كانت تدفعنا من جانب إلى آخر فى حنق وجنون ؛ وخفقت قلوبنا ، وارتجفت أيدينا من التهييج والنشاط ، لا من الخوف والفزع . فقد كانت قلوبنا من طراز قلوب « الفكنجز » سادة البحار النرويجيين ؛ وكنا موقنين بأن ربا ننا مسيطر على الموقف . فكثيرا ما سبق له أن واجه العواصف بيد ثابتة ، وعين خبيرة بصيرة بشئون البحارة . فلما مرت بنا البواخر الكبيرة ، وناقلات المدافع التى فى الميناء حيتنا كلها ، وصفق نوتيها لربان السفينة الصغيرة الوحيدة الذى جازف بنفسه وغامر

وسط العاصفة . وأخيراً وصلنا إلى المرفأ وقد بلغ منا النصب والجوع والبرد مبلغا كبيراً .

وقضيت الصيف الفائت فى ركن بديع فى قرية من قرى نيو انجلند (New England) حتى أصبحت ذكرى بلدة رنتام Wrentham (وهى من أعمال ولاية مساشوستس) مقترنة بكل مسراتى ومتصلة بكل همومى وأحزانى. وسكنت عدة سنين فى رد فارم (Red Farm) على مقربة من « كنج فيلبس بند » King Philip's Pond بلدة المستر تشمبرلين وأسرته (J.E. Chamberlain) وإنى لأذكر بكل شكر وامتنان ما لاقيته من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء من عطف وكرم ، كما أذكر تلك الأيام السعيدة التى قضيتها معهم. وكانت معاشرتى الحلوة لأطفالهم أمراً عظيماً لى ، فكنت أشترك معهم فى ألعابهم ، وطوافهم فى الغابات ، وألعابهم فى الماء . ولا أنسى ثرثرة الأطفال الصغار ، وفرحهم بما ألقيه عليهم من القصص عن الحوريات وأبطال الغابة والدب الماكر فقد كانت لهاذكريات جميلة سارة . وشرع المستر تشمبرلين يعلمنى أسرار الأشجار والأزهار البرية حتى صرت أسمع بأذن الحب الصغيرة جريان العصارة فى أشجار البلوط ، وأسمع ضوء

الشمس يتألق على أوراق الشجر متنقلا باستمرار من ورقة الى أخرى.

و« كما تشارك الجذور المحبوسة فى جوف الأرض المظلم رؤوسَ الشجرة فى أفراحها، وتستفيد من ضوء الشمس والهواء الطلق والطيور ، كنت ، أنا كذلك ، أشارك الطبيعة وأتعاطف معها ؛ وإن هذا ليدل على وجود ما هو مغيَّب عنا ومحجوب عن رؤيتنا » .

ويُخيَّل إلىّ أن فى كل واحد منا قدرة على إدراك الآثار النفسية والانفعالات التى سبق أن خبرها الجنسُ البشرى منذ بداية الخليقة حتى الآن ؛ فلكل إنسان ذاكرة لاشعورية عن الأرض المكسوّة بالخضرة، وعن المياه ذات الخرير ، وليس فى مقدور العمى أو الصمم أن يسلبه هذه الهبة التى أنعمت بها عليه العصورُ الخوالى . فهذه القدرة المعروفة أشبه ما تكون بحاسّة سادسة — هى حاسة روحية تسمع وترى ، وتحس ؛ إنها حواس ثلاث فى حاسة واحدة .

لى أصدقاء عدة فى مدينة (رنتام) . فمن أصدقائى فيها شجرة بلّوط رائعة ، يعتز بها فؤادى ويزهو . فكثيراً ما اصطحبت أصدقائى الآخرين إلى زيارة ملكة الشجر هذه القائمة على ربوة من الأرض تطل على كنبج « فلبس بند »

ويقول الخبيرون بشئون النبات إنه لا بد أن يكون قد مضى عليها ثمانمائة سنة ، أو تزيد ، وهى فى هذا المكان الذى هى فيه . وتقول الرواية إن الملك « فيليب » الزعيم الهندى البطل قضى نحبه عند جذع هذه الشجرة نفسها .

وكان لى صديقة أخرى من بين الشجر ، أرق من البلوطة العظيمة وأيسر وصولا . وهى شجرة زيزفون كانت تنمو عند مدخل الدار فى « رد فارم » (RedFarm) فذات مساء فى أثناء عاصفة هوجاء ، شعرت بصدمة كبيرة مروعة تلقاها جانب الدار ؛ فعرفت ، قبل أن يخبرنى أحد ، أن شجرة الزيزفون قد هوت ، فخرجنا لنرى مصرع البطل الذى قاوم كثيرا من العواصف وعصر قلبى أن أراه لقى على الأرض ذلك البطل الذى جاهد بقوة وسقط بقوة .

ولكن يجب ألا أنسى أنى إنما قصدت هنا أن أكتب عن الصيف الماضى خاصة . فبعد أن فرغت من امتحانى بادرت مع الآنسة « صاليفان » إلى هذا الركن الأخضر ، فلنا فيه كوخ صغير على إحدى البحيرات الثلاث التى اشتهرت بها « رنتام » وهنا كانت الأيام الطويلة المشمسة ملكا حلالا لى ، فأنستنى كل

فكر عن الشغل وعن الكلية ، والمدينة ، الصاخبه ذات الجلبة والضوضاء . وكانت تصل الينا فى « رنتام » أصداء الحوادث الجارية فى العالم من حرب ، ومحالفة ؛ وصراع اجتماعى ؛ فسمعنا عن الحرب الناشبة فى المحيط الهادى البعيد ، وسمعنا بالصراع القائم بين العمل ورأس المال ، فأدركنا أن وراء حدود جنتنا رجال يصنعون التاريخ بعرق جبينهم ، على حين أن الأولى بهم أن يكونوا فى عطلة يستجمون ؛ على أنا لم نلق إلى هذه الأمور بالا ، لأنها سوف تمضى وتزول ؛ أما نحن هنا فوسط بحيرات وغابات وحقول واسعة مرصعة بالأقاحى ، و بين مروج ناضرة حلوة لن تزول ، بل ستبقى خالدة على الزمن .

دهش الذين يظنون أن جميع إحساساتنا تصلنا عن طريق العين والأذن ، من أنى أستطيع أن أميز الفرق بين السير على شوارع المدينة وعلى الطرق فى الريف ، اللهم إلا من حيث أن الأولى مرصوفة ، والثانية غير مرصوفة . ولكن فاتهم أن جسمى كله حى يحس بكل ما حولى من أمور ؛ فضوضاء المدينة وجلبتها تصدم أعصاب وجهى ، فأدرك سير الجمهور غير الموسيقى يضايق نفسى من نشاز ما فيها من جلبة

وصخب ، وأن مرور العربات الثقيلة على الطرق القاسية المرصوفة ، وصوت الآلات الحديثه ، كلها تعذب أعصاب المرء وتشقيها إذا لم يوجه انتباهه عنها إلى ما فى الشوارع المملوءة بالضوضاء من مناظر يراها أولئك الذين يبصرون .

أما فى الريف فالمرء لا يرى غير آيات الطبيعة الحسان، وليس ثمة ما يضايق نفسه ويحزنها من شئون الجهاد القاسى فى سبيل الكفاف من العيش — ذلك الجهاد القائم فى المدن المزدحمة بالسكان. وحدث أن زرت مرات شوارع المدن الضيقة القذرة حيث يعيش الفقراء من الناس فكان يتولانى الغضب وتثور ثائرتى عندما أشعر أن الأخيار الصالحين يرضون أن يعيشوا فى الدور الفخمة ويزدادون قوة وجمالا، على حين أن غيرهم من بنى البشر قضى عليهم أن يعيشوا فى مساكن حقيرة لا تدخلها شمس ولا يشرق فيها ضوء ، فيصبحوا بذلك قباحا ، ذابلى الأجسام أذلاء النفوس . ورأيت الأطفال الذين يتجمعون فى هذه الأزقة القذرة عراة الأجسام ، ناقصو الغذاء يجفلون من يدك المبسوطة لهم كما يجفلون من ضربة تهددهم وتصوب إليهم .

أسفى على هؤلاء الصغار الأعزاء شديد . إنهم ليجثمون فى قلبى ؛ وكثيرا ما أطافوا بأحلامى يروعوننى باحساس بالألم دائم لا يزول .

كذلك تصادف فى هذه الشوارع رجالا ونساء هؤلاء أحنى الفقر ظهورهم وشوّه أجسامهم فأدركت أن حياتهم لابد أن تكون صراعا موصولا لا هوادة فيه ، فلا تعدو أن تكون سلسلة من المجاهدات ، والمحاولات دونها عقبات ومقاومات كثيرة ، لعمل شىء ما . فكأن حياتهم لا تعدو أن تكون تنافراً كبيراً بين الجهد المبذول والفرص السانحة.

إنا نقول إن الشمس والهواء نعمتان أنعم الله بهما علينا جميعاً ، ولكن هل هما كذلك حقا ؟ إن الشمس لا تسطع على تلك الأزقة المظلمة فى هذه المدينة ، والهواء فيها فاسد ؛ فكيف تنسى أيها الانسان أخاك الانسان ، وتقف فى سبيله ، ثم تقول ربنا آتنا اليوم خبزنا اليومى ؛ وأخوك لا خبز لديه ؟ ألا ليت الناس يغادرون هذه المدينة بما فيها من بهاء وضوضاء ، وما تفهق به من ذهب ، ويرجعون إلى الغابات والحقول ، وإلى الحياة الساذجة الكريمة ! فعندئذ تنمو أطفالهم أقوياء ، عليهم سيماء النبل والجلال كما تنمو الأشجار ؛ وتصبح أفكارهم حلوة حلاوة الأزهار التى تنمو على جوانب الأنهار ؛ إنه ليستحيل علىّ أن

منع نفسى عن التفكير فى مثل هذه الأمور كلها عندما أعود إلى الريف بعد سنة أقضيها فى الشغل فى المدينة .

ما أشد سرورى عندما أشعر بالأرض المرنة تحت قدمى مرة أخرى ! وأن أتابع السير فى الطريق المكتسية بالعشب التى تؤدى بى إلى مجارى الأنهار التى ينمو على ضفافها نبات السرخس ، حيث أستطيع أن أغمر أصابعى فى شلال من النغمات المتموجة ، أو أتسلق جداراً من الحجر، حيث الحقول الخضراء المترامية الأطراف، التى ترتفع رباها وتنخفض وهادها بشكل يثير فيك فوضى من السرور والفرح .

وليس يعدل سرورى بالرياضة مشياً على الأقدام سوى سرورى بأن أقوم بدورة على دراجتى المزدوجة المقعد ؛ فيلذ لى أن أشعر بالريح تهب فى وجهى ، وأحس حركة مُهرى الحديدى الوثابة . فالاندفاع السريع فى الهواء الطلق يمنحنى شعوراً لذيذاً بالقوة والنشاط ؛ ومثل هذه الرياضة تجعل نبضى يرقص وقلبى يغنى وينشد .

وكان كلبى يصحبنى عندما أذهب للرياضة على الأقدام أو على ظهر فرس ، أو فى سفينة ، كلما أمكن ذلك . ولى من الكلاب أصدقاء عدة ؛ فعندى كلاب كبار ضخام الأجسام ، وكلاب سلوقية

ناعسة العيون ، وكلاب صيد ماهرة تحسن الصيد فى الغابات ؛ وكان لدىّ عدة أنواع منها : الأمين الوديع الميال إلى التزام البيوت ؛ وإن واحداً من هذا النوع الآن موضع حبى وعطفى، وله نسب طويل وذنب ملتو . ويخيّل إلىّ أن أصحابى من الكلاب تعرف عجزى وقلة حيلتى ، فتلتزم البقاء إلى جانبى ولا تفارقنى ما دمت وحدى . ويعجبنى منها أساليبها التى كلها وداد ومحبة ، كما يعجبنى هز ذيولها بذلك الشكل الفصيح الحافل بالدلالة .

وإذا حجزنى المطر عن الخروج التزمت البيت وسليت نفسى بما يتسلى به سائر البنات الأخريات . وأحب أن أجدل وأقوم بأشغال الإبرة ، وأطالع كتاباً بتلك الطريقة غير المنظمة التى أحبها ، فأقرأ سطراً هنا وسطراً هناك . ولربما لعبت دستا أو اثنين من الشطرنج أو من « الداما » مع صديقة من صديقاتي . وقد جعلت مربعات الرقعة التى ألعب عليها عميقة حتى تستطيع القطع المختلفة أن تقف فيها ثابتة لا تتقلقل . وكانت حجارة «الداما» السوداء مسطحة الوجه ، على حين كانت الحجارة البيضاء مقوسة ، وفى وسط كل قطعة ثقب فيه قطعة من النحاس تميز الملك عن غيره من القطع الأخرى .

وكانت قطع الشطرنج من حجمين مختلفين ، القطع البيضاء أكبر من السوداء حتى لا أجد مشقة فى متابعة حركات خصمى ومناوراته ، وذلك بأن أحرك يدى فى رفق وخفة على الرقعة بعد كل حركة . وفضلا عن ذلك فإن الصوت الذى يحدث من جراء تحريك القطع ونقلها من ثقب إلى ثقب يخبرنى أن قد جاء دورى فى اللعب .

وإن كنت منفردة بنفسى وشعرت بالوحشة تسليت بلعب دور أو اثنين من الورق من اللعبة التى يسمونها «الفردية» Solitaire وهى لعبة من الورق يلعبها فرد واحد ، وكنت أحبها حبا جما ، وأستعمل فى ذلك مجموعة خاصة من أوراق اللعب معلمة فى زواياها اليمنى من جهتها العليا بعلامات مطبوعة برموز (براى) البارزة أعرف منها قيمة الورقة .

فإن حدث وكان حولى أطفال كان غاية سرورى أن ألعب معهم وأعبث ، وإنى لأجد حتى فى أصغر طفل منهم رفقة طيبة ؛ ويطيب لى أن أقول إن الأطفال يحبوننى فى العادة فيطيفون بى هنا وهناك ، ويوضحون لى الأشياء التى تروقهم وتستثير اهتمامهم . ولا شك فى أن الأطفال الصغار لا يستطيعون أن يتهجوا إلى الألفاظ فى يدى ،

ولـكنى أستطيع أن أقرأ شفاههم ، فإن لم أوفق فى ذلك لجأوا إلى الإشارات الصامتة . وكنت أخطئ معهم فى بعض الأحيان فأعمل غير الشيء المطلوب منى ، وعندئذ تنطلق ضحكات الأطفال تحييني وتحيي غلطتى . ويبدأ التمثيل الصامت من جديد ، وكثيراً ما كنت أقص عليهم حكايات شائقة ، أو أعلمهم لعبة من اللعبات التى أعرفها . وبمثل هذه الأمور كان الوقت يمر بنا سريعا ويخلفنا سعداء أخياراً .

والمتاحف ومعارض الصور مصادر من مصادر مسراتى وإلهامى . وليس من شك فى أنه يبدو غريبا لـكثيرين من الناس أن تستطيع اليد ، من غير معاونة من البصر ، أن تحس بما فى الرخام الجاف البارد من الجمال والعواطف والحركة . ومع ذلك فإنى أجد حقاً لذة عظيمة وسروراً كبيراً فى لمس آيات الفن وروائعه . فأناملى تستكشف ، وهى تمر على الخطوط والأقواس ، الأفكار والانفعالات التى أراد المثال أن يصورها ، فأستطيع أن ألمس ما يتمثل فى وجوه الآلهة وملامح الأبطال من الـكراهية والشجاعة والحب ، كما أستطيع أن أعرفها فى وجوه الأحياء الذين يسمح لى بلمسها . وإنى لأشعر فى قوام «ديانا» برشاقة الغابة وحريتها ، كما أشعر فيها بالروح التى تستأنس سباع الجبال

وتروّضها ، وتُخضع أعنف الشهوات وأعرمها ، وأن روحى لتبتهج بما فى تمثال «فينوس» من أقواس ومنحيات رشيقة ، وبما فيها من انسجام مريح للنظر . هذا وإن أسرار الغابة لتتكشف لى فيما أنتجه « باريه » Barrie من تماثيل من البرنز .

ويرى الزائر فى حجرة مكتبى «مُدلاّة» (مدالية) كبيرة تمثل الشاعر «هوميروس» معلقة على الحائط على ارتفاع قليل حتى يسهل علىّ أن أصل إليها وألمسها فى توقير وإجلال مقرونين بالحب — ذلك الوجه الجميل الحزين . وما أحسن ما أعرف كل خط فى أسارير ذلك الجبين الجليل — خطوط هى آثار تركتها فيه الحياة أدلة مريرة على الحزن وعلى الصراع ، تلكما العينان اللتان خلتا من الإبصار واللتان تبحثان ، حتى وهما فى صلصالهما الجامد ، عن الضوء والسموات الزرق التى فى «هلاّس» — بلاد اليونان الحبيبة إلى نفسه ، ولكنهما يبحثان عبثاً عن ذلك الفم الثابت الرقيق . إنه لوجه شاعر ؛ وجه رجل عرف الحزن والأسى . فما أشد ما أفهم حرمانه ! انى لأعرف حق المعرفة ذلك الليل الدائم الذى يعيش فيه ؛ « ذلك الظلام ، الظلام ! الظلام ! المخيم حتى فى وهج مظهيرة ؛ ذلك الظلام الذى لا رجاء فى انقشاعه ؛ إنه كسوف كلى من غير أمل فى أن يخلفه نهار ! »

إنى لأسمع فى خيـالى « هوميروس » ينشد ، وهو يتحسس طريقه من معسكر إلى معسكر بخطى مضطربة مترددة ، يتغنى بالحياة والحب والحرب ، وبما جاء به من جلائل الأعمال وروائعها جيل من الناس كريم . لقد كانت أغنية عجيبة أكسبت الشاعر الأعمى تاجاً خالداً من إعجاب أغدقته عليه الأجيال كلها .

وإنى ليأخذنى العجب أحيانا ، أفليست اليد أكثر من العين حساسية وقدرة على الشعور بما فى النحت من جمال ! ويخيل إلىّ أنا مسرى تحس باللمس مجرى الخطوط والمنحنيات المتناسقة أدق مما تدركها بالبصر ، ومهما كان الأمر فإنى أعرف أنى أستطيع أن أدرك نبض قلوب الإغريق القدامى فى آلهتهم المصنوعة من الرخام .

وثم نوع آخر من السرور أستمتع به ، ولـكنه لا يجىء عادة إلا أندر من غيرة . وذلك هو الذهاب إلى دور التمثيل . فإنه يطيب أن توصف لى المسرحية وهى تمثل فأستمتع بها أكثر مما لو كنت أقرؤها لأنى أكون كمن يعيش وسط حوادث مثيرة . وكان من حسن حظى وتوفيقى أن قابلت عدداً غير قليل من كبار الممثلين والممثـلات الذين وهبهم الله قدرة يسحرونك بها فتنسى الزمان

والمكان وتحيا من جديد فى الماضى الجميل الرائع ، وقد سمح لى أن ألمس وجه الآنسة «إلين تيرى» [1] (Ellen Terry) وأتحسس ملابسها، وهى تمثل فكرتنا عن الملكة المثالية ؛ وكانت تحف بها تلك الربّانية التى تبعد عنها كل ما قد يحل بها من شتى المصائب . وكان إلى جانبها السير هنرى إرفنج [2] (Sir Henry Irving) وعليه سيماء الملك ، تقرأ جلال الذهن فى كل حركة من حركاته ، وفى كل موقف من مواقفه ، وتتلى سلطة الملك التى تخضع وتقهر فى كل أسارير وجهه الحساس . ففى « قناع » الملك الذى اتخذه فى التمثيل ، تدرك أنه يعبر عن كل حزن وأسى ويمنحنى منها ما لن أنساه أبداً .

كذلك عرفت المستر « جفرسون » (Jefferson) . وإنى

---

(١) إيلين تيرى — ممثلة انجليزية (١٨٤٨ — ١٩٢٨) مشهورة وكانت الممثلة الأولى فى فرقة السير هنرى إيرفنج تقوم بتمثيل شخصيات شكسبير وشخصيات برنارد شو .

(٢) السير هنرى إرفنج ممثل اسمه الحقيقى John Henry Bedribb وقد اتخذ اسمه إيرفنج منذ سنة ١٨٥٦ ،وكان ممثلا فى مسرح الليسيوم بلندن ثم تولى إدارته ، وهو أول ممثل حصل على لقب « sir »

لأفخر بأنه من بين أصدقائى ، فأزوره فى كل مكان أعرف أنه سيمثل فيه ؛ وأول مرة رأيته فيها يمثل كانت فى « نيو يورك » وفى المدرسة التى كنت ملتحقة بها، حيث مثل لنامسرحية « ريب فان ونكل Rip Van Winckle »[1] ؛ ومع أنى قرأت القصة مرات فإنى لم أشعر بروعة طرق «ريب» البطيئة الغريبة بمثل ماشعرت بها وهو يمثل .. وكان تمثيل مستر « جفرسون » الجميل الذى كله عطف يملأ نى طرباوخفة حتى لأكاد أخرج من طوقى . وإن لى فى أناملى صورة «لريب» العجوز لن تزول عنها أبدا . ثم بعد التمثيل أخذتنى الآنسة «صاليفان» إلى المسرح لأراه من وراء «الـكواليس» فلمست رداءه الغريب ، وشعره المسدول ، ولحيته المرسلة ، وسمح لى المستر جفرسون أن ألمس كذلك وجهه حتى أستطيع أن أتصور كيف تحامل «ريب» المسكين العجوز ووقف على قدميه

كذلك رأيته وهو يمثل فى المسرحية المشهورة « المتنافسون »

---

(١) من تأليف الـكاتب الأمريكى المؤرخ واشنجطن إيرفنج (١٧٨٣ — ١٨٥٩) .

(The Rivals) فذات مرة ، وأنا أزوره فى بوسطن، تفضل ومثل أروع أجزاء هذه المسرحية من أجلى ، فاتخذ من حجرة الاستقبال التى كنت بها مسرحا ؛ وجلس مع ابنه أمام المنضدة الكبيرة وكتب بوب آكرز (Bob Acres) تحدّيه ، فكنت أتتبع كل حركة من حركاته بيدى، وأدركت أخطاءه وحركاته المضحكة بشكل يستحيل علىّ أن أدركها لو أن أحداً تهجاها لى على يدى . ثم قاما يتبارزان، فكنت أتابع ضربات السيوف السريعة ، وأساليب تفاديها ، وتردد «بوب» المسكين عندما أخذت شجاعته تنساب من أطراف أصابعه . ثم حول الممثل الكبير رداءه وحرك فمه حركة صغيرة سريعة، فإذا بى أجد نفسى قد انتقلت فى لحظة إلى قرية فولنج ووتر Falling Water وشعرت برأس شنايدر ، ووفرته العظيمة على ركبتى . وألقى المستر جفرسون Jefferson خير حوار « ريب فان ونكل » الذى كانت تمتزج فيه الدموع بالابتسامات ، وطلب منى أن أبين له، بقدر مايسعنى أن أبين ، الأفعالَ والإشارات والحركات التى ينبغى أن تصاحب الكلام وتسايره . و إذ لم يكن لدى أية فكرة عن التأثير المسرحى، لم يسعنى إلا أن أحزر وأخمن ؛ ولكنه كان يوائم بمهارته الفنية

الفائقة بين الفكرة والحركة كل المواءمة ؛ وإن تنهد « ريب » وهو يصيح : أهكذا ينسى الإنسان بسرعة رحيله ؟ وإن حزنه وألمه وهو يبحث عن الكلب والبندقية بعد نومه الطويل ، وتردده المضحك فى أمر توقيع العقد مع ديريك Derrick — هذه كلها بدت لى نابعة من الحياة نفسها — من الحياة المثالية التى تسير الأمور فيها بحسب ماترى أنها يجب أن تسير

وإنى لأذكر جيداً أول مرة ذهبت فيهـا إلى المسرح لمشاهدة التمثيل ، وكان ذلك منذ اثنتى عشرة سنة ؛ فقد كانت إلسى لزلى(Elsie Lesie,) الممثلة الصغيرة تعمل فى بوسطن . فاصطحبتنى الآنسة « صاليفان » إلى المسرح لأراها وهى تمثل رواية الأمير والصعلوك[1] (The Prince And the Pauper) ولن أنسى ماحييت تعاقب الفرح والحزن وهما يتخللان هذه المسرحية الصغيرة الرائعة ، كما لا أنسى الطفلة العجيبة التى قامت بتمثيلها . وقد سمح لى بعد التمثيل أن أذهب إلى ما وراء « الكواليس »

(١) من تأليف « مارك توين » — انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٠١ .

لأقابل الممثلة وهى مرتدية حلتها الملكية . ومن العسير أن تجد طفلا أروع من «إلسى» ولا أجمل منها وهى واقفة وعليها سحابة من الشعر الذهبى اللون طافية على كتفيها ، وقد جعلت تبتسم ابتسامات متألقة من غير أن تبدو عليها أى علائم الاستحياء أو التعب ، على الرغم من أنها كانت تمثل أمام جمع خفير من النظارة . وكنتُ قد بدأت أتعلم الكلام ، فدربونى على أن أكرر اسمها المرة بعد المرة ، حتى صرت أنطقه على وجه الصحة . فتصور سرورى عندما فهمتْ الممثلة الكلمات القلائل التى خاطبتها بها ؛ فمن غير تردد مدت إلىّ يدها لتحيينى .

إنه لصحيح إذن أن حياتى ، على ما بها من قيود وما لها من حدود ، متصلة بعالم الجمال من نواح كثيرة . فكل ناحية حافلة بالعجائب والغرائب حتى الكلام والصمت ؛ وإنى لأتعلم أن أكون فى هذا العالم قانعة راضية أياً كانت الحالة التى أكون فيها .

نعم قد يطغى علىّ فى بعض الأحيان إحساس غامر بالعزلة يشملنى كلى كأنه ضباب بارد ، وذلك عندما أجلس منفردة بنفسى أنتظر فى ترقب أمام باب الحياة الموصد فى وجهى ؛ فوراءه النور والموسيقى والرفقة الحلوة ، ولكن دخول هذا الباب محرم علىّ .

الفصل الثالث والعشرون

فضل أصدقائى على

ليتنى أستطيع أن أجعل هذا الفصل حافلا بأسماء جميع الذين عاونوا على إسعادى ! لا شك فى أن أسماء بعضهم معروفة فى تاريخ أدبنا ، معروفة كل المعرفة ، و إنها لحبيبة إلى قلوب الكثيرين منا ؛ ولكن ثمة أسماء أخرى لا يعرفها غالبية قرائى . فإن ما لأصحابها من تأثير ، و إن لم يحظوا بالشهرة و بعد الصيت ، سيظل خالدا فى كل حياة أضحت به كريمة حلوة . ألا ! إنها أيام خالدة فى حياة كل منا ، تلك التى نقابل فيها أشخاصا يطربوننا ، كما تطر بنا القصيدة الرائعة من الشعر ؛ أولئك الذين اذا ما صافحتهم شعرت بأن أيديهم تفيض عطفا لا يتسنى لك التعبير عنه ؛ والذين توحى طبائعهم الحافلة العذبة إلى أرواحنا اللهيفة الجزعة براحة عجب ، هى فى جوهرها راحة ربانية . فما يشغل بالنا من ارتباكات و بلبلة أفكار ، ومضايقات ، ومزعجات شتى ، لتمر بنا كأنها أحلام غير سارة ، نستيقظ بعدها

فنرى بعيون جديدة ، ونسمع بآذان جديدة ، مافى العالم الحقيقى ، الذى خلقه الله ، من جمال وانسجام . وعندئذ تتفتح فجأة تلك التفاهات الخطيرة الشأن التى تملأ حياتنا اليومية ، وتزدهر فتصبح إمكانيات زاهرة . وقصارى القول إنا لنشعر بأن كل شىء بخير ، وعلى ما يرام ، مادام مثل هؤلاء الأصدقاء على كثب منا . ولربما لم نكن رأيناهم قط من قبل ؛ وربما لن يصادفونا فى حياتنا فيما بعد ، ولكن ما لطبائعهم الدمثة ، وما لشمائلهم الناضجة من تأثير وقوة ينزل على ما بنا من تسخط وتذمر فيأسوهما ، فنشعر بما لهذا التأثير من قوة شافية ، كما يشعر المحيط بما للمجارى المياه العذبة المنحدرة اليه من الجبال ، من أثر فى ملوحة مياهه .

وكثيرا ماسئلت عما إن كان الناس يضايقوننى ، فلم أفهم المراد من هذا السؤال تمام الفهم ؛ وأظن أن زيارة البلداء والفضوليين من الناس ، ولا سيما مخبرو الجرائد ، تكون مصدر مضايقة دائما وفى غير محلها . هذا ؛ وانى لأكره ، أولئك الذين يحاولون أن ينزلوا فى حديثهم إلى مستوى إدراكى ، فهم أشبه ما يكونون بهؤلاء الذين يحاولون ، وهم يسيرون معك ، أن يقصروا خطاهم ، حتى تتناسب

وخطواتك . فالرياء فى كل من الحالتين لاشك يغيظ و يحنق .

إن أيدى الذين أقابلهم تفصح لى عما فى نفوسهم ، ولكنها فصاحة خرساء ؛ على أن لمس أيدى بعض الناس يعد وقاحة ؛ فقد قابلت أناسا قلوبهم خلو من كل فرح ، فعندما أقبض بيدى على أطراف أصابعهم المقرورة يخيل إلى أنى أصافح عاصفة وافدة من الشمالى الشرقى . ولكن ثم آخرون غيرهم كأن فى أيديهم أشعة من الشمس؛ فمصافحتهم تدفىءقلبى؛ أنها قدلاتكون غير لمسة من يد الطفل المتعلق بك ، ولكن ما يكمن فيها بالقوة من ضوء الشمس، قد يكون لى ما تكونه نظرة المحب لغيرى من الناس ؛ فان هزة من يد صديق ، أو خطابا من أخ حبيب ليبعثان فى نفسى سروراً حقيقياً لا تكلف فيه ولا تصنع

إن لى أصدقاء كثيرين بعيدين عنى كل البعد ، فلم أرهم مرة واحدة ،وقد بلغوا من كثرة العدد أنى لاأستطيع الرد على خطاباتهم التى يبعثون بها إلىّ ؛ على أنى أود أن أقول هنا انى شاكرة لهم دائما ما يبدونه فى خطاباتهم من عبارات طريفة ، و إن كنت لا أجيب عن هذه الخطابات بما فيه الكفاية .

وأنها لميزة من أحلى مزايا حياتى أنى تعرفت بكثير من العباقرة وتحدثت معهم ، فليس غير الذين يعرفون الأسقف [1] بروكس (Brookes) يستطيعون أن يقدروا مدى ما تحدثه صداقته من السرور فى نفوس الذين كان لهم الحظ فى أن يظفروا بها ، فكنت وأنا طفلة ، أحب أن أجلس على ركبتيه ، أتناول يده الضخمة بإحدى يدى ، على حين تتهجى الآنسة « صاليفان » على يدى الأخرى ألفاظه الجميلة عن الله ، والحياة الروحية وكنت استمع اليه بعجب الأطفال وفرحهم ؛ وليس من شك فى أن روحى لا تسمو إلى روحه ولكنه أوجد فى نفسى شعوراً حقيقياً بالسرور بالحياة ، فلم يحدث أنى غادرته مرة واحدة من دون أن أحمل معى فكرة رائعة تظل تنمو جمالا وتزداد معنى ، كلما كبرت . فذات مرة ، وقد حيرتنى مشكلة تعدد الأديان ، قال لى : لا يوجد ، يا هيلين ، غير دين عالمى واحد وذلك هو دين الحب ؛ فأحبى خالقك من كل قلبك ، و بكل روحك ، وأحبى كل طفل

---

(۱) هو فيلبس بروكس ۱۸۳٥ — ۱۸۹۳ وكان رجلا من رجال الدين الأمريكيين عرف بسعة الأفق وكان محبوبا من جميع الذين اتصلوا به .

من أطفال الله بقدر ما يسعك أن تحبيه ، ولا تنسى أن احتمالات الخير أكثر من احتمالات الشر ، وعندئذ تحصلين على مفتاح السماء .
لقد كانت حياته كلها مثالا يوضح هذه الحقيقة الكبرى ، و برهانا و يؤيدها . فالحب والمعرفة الواسعة امتزجا فى نفسه الكبيرة بالإيمان الذى أضحى بصيرة نفاذة ؛ فكان يرى الله

فى كل ما يحرر الانسان و يسمو به ،

وفى كل ما يخضعه و يذلّه ، و يحلى حياته و يواسيه .

لم يعلّمنى الأسقف « بروكس » عقيدة خاصة ، ولم يبث فى نفسى مبدأ معيناً من المبادىء الحتمية ، بل غرس فى قلبى فكرتين عظيمتين : أبوة الله ، وأخوة البشر ، وجعلنى أشعر بأن هاتين الحقيقتين مضمنتان فى جميع العقائد وفى جميع شعائرها . فالله محبة ؛ والله أبو الناس جميعاً ، وكلنا أبناؤه . و بذلك تمرّ أشد السحب قتامة وحلوكا ؛ فإن كان الحق ينهزم أحياناً ، فإن الباطل لن يفوز أبدا .

هذا ، و إنى لسعيدة فى هذه الدنيا سعادة تمنعنى أن أفكر فى المستقبل ، اللهم إلاّ أن أتذكر أن لى أصدقاء أعزاء علىّ ينتظروننى هناك فى الرفيق الأعلى فى مكان جميل ؛ إنه ليخيل إلىّ ، على الرغم من كر

السنين ،أن هؤلاء الأصدقاء على مقربة منى ، ولست أدهش إن كانوا فى لحظة ما يقبضون على يدى ويوجهون إلىّ كلمات تدليل وإعزاز ، كما كانوا يفعلون قبل انتقالهم .

ومنـذ أن توفى الأسقف بروكس ، قرأت الـكتاب المقدس عدّة مرات ، كما قرأت بضع كتب أخرى فلسفية فى الدين ، مثل كتاب « الجنة والنار » لمؤلفه سودنبرج[1] Swedenborg وكتاب صعود الإنسان لدرمند[2] Drummond فلم أجد عقيدة ؛ ولا نظاماً

---

(١) سويدنبرج — (١٦٨٨ — ١٧٧٢) زعيم من زعماء رجال الدين فى السويد ؛ تخرج فى جامعة أوبسالا ، وزار كثيرا من البلاد الأوروبية وصرف ثلاثين سنة مشتغلا بالبحوث العلمية ، ثم عُنى بعلاقة الجسم والروح وانصرف إلى الأمور الدينية حتى صار زعيما لمذهب يعرف بالسويد نبرجانية نسبة إليه ، وله أتباع كثيرون فى انجلترا والولايات المتحدة واسكندناوه ـــ وقد كتبت هيلين كيلر عن سويدنبرج كثيرا فى كتاب لها تشرح فيه ديانتها عنوانه « ديانتى » (My Religion)

(٢) درمند ـــ هو هنرى درمند (١٨٥١ — ١٨٩٧) عالم بيولوجى ، ولاهوتى فى الوقت نفسه ، حاول أن يوفق بين نظرية النشوء والارتقاء ، وبين المسيحية فى كتابيه : القانون الطبيعى فى عالم الروح (١٨٨٣) وصعود الإنسان (١٨٩٤) .

فلسفياً مريحاً للنفس أكثر من عقيدة الحب التى ينادى بها الأسقف بروكس . وكذلك عرفت المستر « هنرى درمند » Henry Drummond ، وإن ذكرى قبضة يده الكبيرة الدافئة لأشبه ما تكون ببركة ونعمة علىّ ، فقد كان خير الجماعة رفقاً بى وبرّاً ، وأكثرهم عطفاً علىّ ؛ كان ودوداً محباً صريحاً مخلصاً ، واسع المعرفة . فمن المحال عليك أن تشعر بالخجل فى حضرته .

وأذكر جيداً أول مرة قابلت فيها الدكتور أوليفر وندل هلمز[٣] (Oliver Wendel Holmes) فقد دعانى والآنسة «صاليفان» إلى زيارته فى عصارى يوم من أيام الآحاد ، فى بداية فصل الربيع ، بعد أن تعلمت كيف أتحدث مع الناس . فلما دخلنا حجرة مكتبته وجدناه جالساً فى مقعد وثير كبير بجانب موقد مكشوف تضئ ناره فتسمع لها صوتاً . وكان هو ، كما يقول ، يفكر فى أيام مضت ؛ فأضفت

---

(٣) أوليفر وندل هلمز (١٨٠٩ — ١٨٩٤) طبيب وكاتب أمريكى درس فى جامعة هارفارد ، وتعين أستاذاً للتشريح فيها ومن أهم كتبه التى أدهشت أمريكا عند ظهورها « طاغية مائدة الإفطار » The Autocrat of the Breakfast Table .

إلى ما قال : وتصغى إلى خرير نهر تشارلس [1] فقال « نعم ! إن لنهر تشارلس ذكريات عزيزة علىّ » . وكانت رائحة الطباعة والتجليد تفوح فى الحجرة ، مما دلّنى على أنها كانت ملأى بالكتب . فمددت يدى بالفطرة أتحسسها ؛ فوقعت أصابعى على مجلد جميل من ديوان الشاعر « تنيسون » [2] (Tennyson) فلما سألتنى الآنسة « صاليفان » عن هذا الكتاب أنشدتها :

Break break break
on thy cold grey stones o!. sea

ثم توقفت فجاءة ، فقد شعرت بالدموع تتساقط على يدى . لقد أبكيت شاعرى الحبيب إلى نفسى ، فتأثرت أيما تأثر ، فأجلسنى فى مقعده الكبير ، وقدم لى أشياء كثيرة منوّعة شائقة كى أفحصها ،

---

(١) نهر تشارلس : النهر الذى تقع عليه مدينة كمبريدج فى ولاية مساشوستس ، تجاه مدينة بوسطن .

(٢) تنيسون الشاعر الإنجليزى (١٨٠٩ — ١٨٩٢) المشهور ومن أبدع قصائده « للذكرى » In Memorium كتبها بمناسبة وفاة صديقه آرثر هالاّم بسبعة عشر عاما وإن لم تنشر إلا بعد وفاة هالاّم .

ثم أنشدت استجابة لطلبه «The Chambered Nautilus» وهى أحب القصائد إلىّ وقتئذ . ثم بعد ذلك شاهدت الدكتور هلمز مرات كثيرة ، وتعلمت أن أحب فيه الإنسان ، كما أحببت فيه الشاعر من قبل .

وذات يوم صائف جميـل ، بعد مقابلتى الدكتور هلمز بزمن قصير ، زرت مع الأنسة «صاليفان» الشاعر هويتيار[1] (Whittier) فى داره الهادئة على نهر المريماك Merrimac وقد أسر لبىّ بما له من أدب رقيق وطريقة غريبة فى الكلام . وكان معه نسخة من ديوان شعره مطبوعة بالحروف البارزة ، قرأت منه قصيدة «فى أيام المدرسة» (In School Days) فسرّه أن يعرف أنى أجيد نطق الألفاظ إجادة طيبة ، وقال إنه لا يجد أية صعوبة فى فهم ما أقول . فوجهت إليه عدة أسئلة عن القصيدة ، وقرأت جوابه بوضع أصابعى على فمه .

---

(١) « هوتيار » Whittier (١٨٠٧ — ١٨٩٢) شاعر من أكبر الشعراء الأمريكيين فى القرن الماضى . ولد فى مساشوستس وعمل فى بداية أمره فلاحا ، فأحب الحرية والطبيعة وأهلها ومناظرها وكان لذلك أثره البارز فى شعره .

فقال : « إنه كان ذلك الولد الصغير الذى فى هذه القصيدة ، وأن اسم البنت كان « سالى » (Sally) وقال غير ذلك كثيراً مما لست أذكره ؛ وكذلك أنشدته Laus Des ولما نطقت بالأبيات الختامية وضع فى يدى تمثالا لعبد تتساقط أصفاده من شكله المتجمّع الذليل كما سقطت من أيدى بطرس والمَلَكُ يخرجه من السجن ؛ و بعد ذلك مضينا إلى حجرة مكتبه فكتب بيده سطرين[1] لمعلمتى مبدياً إعجابه بعملها ، وقال لى إنها محررتك الروحية يا هيلين . ثم سار بى إلى الباب وقبلنى فى جبينى بعطف ظاهر ، ووعدته بزيارة أخرى فى الصيف القادم ، ولكنه توفى قبل أن يتحقق هذا الوعد .

كان الدكتور إدوارد إفريت هيل[2] (Dr. Edward Everett

---

(١) إن إعجابى لشديد بعملك النبيل الذى أطلق عقل تلميذتك العزيزة من إساره ؛ وإنى لصديقك حقا ،

جون ب هويتيار

(٢) الدكتور هيل — Dr Ed. Everett Hale ١٨٢٢ — ١٩٠٩ قسيس ، وكاتب أمريكى معروف من كتاب المقالات اشتهر بشدة تفاؤله. وكان من المشرفين على جامعة هارفارد .

(Hale من أقدم أصدقائى ؛ عرفته ، ولم يزد عمرى على ثمانى سنين . وظل حبى له يزداد ويقوى كلما كبرت ، فقد كان عطفه الحكيم الرفيق خير معين للآنسة « صاليفـــان » ولى ، فى أوقات المحن والشدائد . فما عمله من أجلنا، عمله كذلك لآلاف من الذين واجهتهم أعمال شاقة ، عليهم أن ينجزوها ويتموها ؛ فقد استبدل الحب بالمبادىء الحتمية القديمة ، وبين للناس معنى أن يؤمنوا ، ويعيشوا ، ويصبحوا أحرارا . وقد رأينا كل ما يدعوا إليه وينشره على الناس بارزاً فى حياته الخاصة ومتحققاً فيها: حب الوطن، ومحبة الإخوان جميعا حتى أضعفهم وأدناهم ، ورغبة صادقة فى أن يسير فى حياته صعداً وقدما . لقد كان نبياً يوحى إلى الناس ويلهمهم ، وصديقاً لبنى جنسه ؛ فاللهم بارك فيه !

سبق أن أشرت إلى مقابلتى الأولى للدكتور « ألـكسندر جراهم بل » ؛ فمنذ تلك المقابلة ، قضيت معه أياماً كثيرة سعيدة فى واشنجطن ، فى داره الجميلة وسـط « جزيرة كيب بريطون » Cape Breton Island على مقربة من قرية باديك Baddek وهى

القرية التى أذاع اسمها وأشهرها كتاب تشارلس دَدْلى وارنر[1] (Charles Dudley Warner) فهنا فى معمل الدكتور « بل » أو فى الحقول على شواطىء « بادور » العظيم Bas d'or قضيت ساعات كثيرة ممتعة ، استمع إلى عما يحدثنى به عن تجارب التى يقوم بها ، وأساعده فى تطيير الطيارات التى كان ينتظر أن يستكشف بها القوانين التى ستتحكم فى سفن المستقبل الهوائية . والدكتور « بل » بارع فى كثير من ميادين العلم ، وفيه مقدرة تمكنه من أن يجعل كل موضوع يعالجه شائقاً جذاباً حتى أشد النظريات العلمية غموضاً وإبهاما . وإنه ليجعلك تشعر بأن لو كان لديك قليل من الوقت أكثر مما لديك لاستطعت أنت أيضاً أن تكون من المخترعين ..

وفضلا عن ذلك فإنه له نواحيه الشعرية والفكاهية . وشهوته الغالبة عليه هى محبته للأطفال ، فأسعد أوقاته عندما يكون بين ذراعيه طفل

(١) وارنر (١٨٢٩ — ١٩٠٠) أديب ناقد وكاتب من كتاب المقالات ، ساح فى بلاد كثيرة وكتب كثيرا ، وكان له أثر كبير فى الأدب فى القرن التاسع عشر فى مريكا .

أصم يواسيه ويؤنسه ، ولسوف تبقى جهوده التي بذلها في سبيل تعليم الصم خالدة على الدهر تبارك أجيالا من الأطفال تتوالى جيلا بعد جيل . إنا لنحب « جراهام بل » من أجل ما أنجزه من أعمال ومن أجل ما ألهم به غيره من الناس وحثهم على إنجازه .

وفي السنتين اللتين قضيتهما في نيو يورك أتيحت لي فرص كثيرة للتحدث إلى كثيرين من الناس البارزين النابهين الذين سمعت بأسمائهم ولم يخطر ببالي أبداً أني سأقابلهم في يوم من الأيام . وقد صادفت أكثرهم أول ما صادفتهم في دار صديقي المستر لورانس هاطون[1] Laurence Hutton . ولقد كانت ميزة خاصة لي أن أزوره وزوجه العزيزة في دارهما الجميلة ، وأرى خزانة كتبهما ، وأقرأ العواطف النبيلة ، والأفكار النيرة التي كتبها لهما كثيرون من أصدقائهما الموهوبين ، ولذا قيل بحق إن للمستر هاطون موهبة خاصة تمكنه أن يستخرج من كل إنسان خير ما في نفسه من أفكار ، وأرق ما يجيش في صدره من عواطف . وليس أحد منا بحاجة إلى مطالعة كتاب

---

(١) لورنس هاطون (١٨٤٣ — ١٩٠٤) أديب ورحالة وناقد مسرحي ، وهاو من هواة العاديات والكتب .

« الصبى الذى عرفته » The Boy I Knew ليقف على حقيقة المستر هاطون ، فهو أكرم من عرفته طبعا ، وأحلاهم خلقا : إنه صديق فى الشدة وفى الرخاء ، يتبع آثار الحب فى كل ما يتعلق بالحيوان كما يتبعها فيما يتصل بحياة بنى الإنسان .

والسيدة هاطون صديقة مخلصة مجرَّبة ؛ وأعترف أنى مدينة لها بالكثير مما أعده من أحلى الأشياء وأرقها ، وبما أعده من أثمنها وأكبرها قيمة ، فكثيراً ما أرشدتنى وعاونتنى فى دراستى فى الكلية حتى إذا ما وجدتُ عملى شاقاعلىّ كل المشقة يكاد يثبط همتى ويفت فى عضدى ، كتبتْ إلىّ بما يعيد إلىّ سرورى ، ويرد علىّ شجاعتى ؛ فهى من اللواتى نتعلم منهن أن واجباً واحداً شاقاً نتمه وننجزه ، يجعل الواجب الذى يليه أبسط وأهون .

وعرفنى المستر هاطون بالكثيرين من أصدقائه ، وكان من أعظمهم« المستر وليام دين هاولز »[1] William Dean Howells

---

(١) « وليام دين هاولز » (١٨٢٧ — ١٩٤٠) صحفى أمريكى وأديب شاعر مكثر ، له نحو ثمانين كتابا وكان صديقا للكاتب المشهور « مارك توين» .

« ومارك توين »[1] (Mark Twain)، وقابلت المستر « ريتشارد واطسن جلدر »[2] (Richard Watson Gilder) والمستر « أدمند كلارنس ستدمان »[3] (Edmund Clarense Stedman) كذلك عرفت المستر « تشارلص ددلى وارنر » (Charles Dudley Warner) أبرّ كتاب القصص وأبهجهم قاطبة ، وخير صديق محبوب ؛ فقد كان عطفه غامراً شاملا حتى ليقال عنه بحق

---

(١) « مارك تون » ١٨٣٥ — ١٩١٠ اسم مستعار للكاتب الأمريكى الفكه صمويل كلمنس لانجرت بدأ حياته مخبرا لبعض الصحف . ومن أشهر مؤلفاته Tom Sauyer ، The Prince and the Pauper و Life on the Mississippi (وقد نشرت الادارة الثقافية فى السفارة الأمريكية فى مصر قطعة من الكتاب الثانى بالعربية)

(٢) جيلدر — ريتشرد واطسن جيلدر (١٨٤٤ — ١٩٠٩) صحفى أمريكى شاعر عرف بمحبته للشرق وقد ساح فيه كثيرا .

(٣) ستدمان ـ شاعر كاتب ناقد على الرغم من أنه من كبار الماليين ورجال الأعمال ، إذ كان يشتغل بالسمسرة فى نيويورك . وكانت أمه شاعرة ، تقول إنه بدأ يقول الشعر وهو صغير جدا ، نشر أول ديوان له سنة ١٨٦٢ ومن أهم كتبة النقدية . شعراء أمريكا Poets of America

إنه يحب كل كائن حىّ ، وكل جار من جيرانه ، كما يحب نفسه .

وذات مرة جاء المستر وارنر (Warner) ومعه المستر جون باروز[1] (John Burrows) شاعر الغابات، ليرانى ، وكانوا كلهم رقة وعطف ؛ فشعرت بروعة أدبهم ، كما شعرت بنباهة مقالاتهم ، وبكرائم قصائدهم : و بالطبع لم يكن فى مقدورى أن أساير كل هؤلاء الأدباء فى تنقلهم من موضوع إلى آخر ، ولا عندما يدخلون فى مناقشات عميقة ، أو يتحدثون أحاديث رائعة حافلة بالحكم ، زاخرة بالطرائف والفكاهة ، فكنت أشبه ما أكون بأسكانياس الصغير[1] وهى يتابع خطوات إينياس[2] الواسعة نحو ما هو مقدر له من الأمور

---

(١) أسكانياس — ابن اينياس الآتى ذكره — وكان يقفز إلى جانب أبيه بخطوات غير متسقه وهما يهربان معا من تروادة بعد حريقها .

(٢) إينياس - بطل من أبطال القصص القديمة . فهو أمير تروادة حارب ضد الإغريق لما أغاروا عليها وقد نجته الالهه من الموت المحدق به مرات ؛ ويصفه فرجيل فى الانيادة بأنه هرب من تروادة ، وظل يطوف بالبلاد حتى استقر فى لاتيوم فى أواسط إيطاليا .

الجسام ولكنهم كانوا يوجهون إلىّ كلمات طيبات. فتحدث إلى المستر جيلدر عن السياحة الى الأهرام في ضوء القمر عبر الصحارى الواسعة، وفى خطاب منه الىّ وضع فى الورقة علامة عميقة تحت إمضائه حتى أستطيع أن ألمسها بيدى وأحس بها؛ وهذا يذكرنى بأن الدكتور هيك اعتاد أن يجعل لخطاباته التى يكتبها إلى صفة شخصية، بأن يثقب إمضاءه على طريقة « براى ». وحدث أن قرأت مرة من شفتى « مارك توين » قصة أو اثنتين من قصصه؛ فان له طريقته الخاصة به فى التفكير والكلام والعمل؛ و إنى لأشعر بوميض عينيه فى يده عندما يصافحنى؛ وحتى عندما ينطق بحكمته التشاؤمية بصوته الغريب كل الغرابة يجعلك تشعر أن قلبه كله الياذة رقيقة من العطف الانسانى.

وثم طائفة كبيرة من ناس آخرين قابلتهم فى نيو يورك مثل السيدة مارى موبس ددج (Mary Mopes Dodge) محررة جريدة « سان نيكولاس » الغراء والسيدة « ريجز » (Riggs) التى كان اسمها قبل زواجها « كيت دوجلاس و يجين » (Kate Douglas Wiggin) مؤلفة قصة « باتسى »

---

(١) كاتبة أمريكيه لها قصص كثيرة وعدة مسرحيات.

(Patsy) الرائعة ، وقد تفضلتا وأهدتا إلىّ هدايا منوعة تفصح عن تآلف القلوب وتعاطفها ، كما أهدتانى كتباً تتضمن آراءهن ، وأرسلتا إلىّ خطابات تكشف عن عميق ما استقر فى نفوسهن ، ورسوما فوتوغرافية ، يسرنى كل السرور أن توصف لى المرة بعد المرة عند ذكر جميع أصدقائى .

هذا وثمة أشياء محجوبة خلف أجنحة الملائكة ، وهى أمور مقدسة أسمى من أن أذكرها ، وأجلّ من أن أفصح عنها بالحروف الجافة . إنى لم أذكر حتى اسم السيدة « لورانس هاطون » (١) (Laurence Hutton) إلاّ بعد تردد كثير .

وسأجتزىء هنا بذكر صديقين آخرين أولاهما السيدة وليام ثو (Mrs Wiliam Thaw) التى كثيراً ما ترددت عليها فى منزلها بمدينة ليندهرست (Lyndhurst) حيث لا تُرى إلا مشغولة بالعمل على إسعاد بعض الناس ، وكان كرمها وجميل نصحها خير معين لى ولمعلمتى طوال السنوات التى عرفناها فيها .

أما الصديق الآخر فانى مدينة له بالكثير ، وهو معروف حق

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ صفحة ٢٠٠

المعرفة بيده القوية التي يدير بها مشروعاته الضخمة الواسعة ، فضلا عن مقدرته العجيبة التي جعلته موضع احترام الناس كافة ؛فهو كريم يعطف على كل إنسان ، ويعمل الخير في صمت وخفاء .. ولكن هأنذا عدت الى ذكر أسماء كريمة عزيزة علي ، هي أجلّ من أن تذكر ، ولكنني أنما أحاول أن أعترف بكرمه ، وبجميل اهتمامه بشأني ، وهما الأمران اللذان يسّرا لي الالتحاق بالكلية .

وهكذا ترون أن أصدقائي هم الذين صنعوا « قصه حياتي » وجعلوها ممكنة ، فقد استطاعوا بطرق شتى لا حصر لها ، أن يخلقوا من قدراتي المحدودة مزايا جميلة رائعة ، ويسّروا لي أن أمشي سعيدة وقوراً وسط ذلك الظلام الذي سدله عليّ ما منيت به من حرمان .

دار النيل للطباعة
١٩٥٢

دار النيل للطباعة
ت ٥٨٨٥٥